الفصل الأول

دعوى الروافد الثقافية

لنبي الإسلام (ﷺ)

الجذور والتطور

الفصل الأول

احتدم الجدل منذ العصر الوسيط حول شخصية نبي الإسلام (ﷺ)، وقد كثرت الادعاءات حوله في الشرق والغرب، إلى الحد الذي توارت معه الحقيقة في كثير من الأحيان؛ حيث قاومت الصورة الموروثة هنا وهناك محاولات تصحيحها إلى حد كبير.

ونتناول موضوع هذا الفصل من خلال العناصر التالية:

١- شخصية نبي الإسلام (ﷺ) بين الحقيقة والادعاء

(أ) نظرة الغلاة من المسلمين لشخصية نبي الإسلام (ﷺ)

(ب) نظرة الغلاة من غير المسلمين لشخصية نبي الإسلام (ﷺ)

٢- اتهامات المكيين لمحمد (ﷺ) أصل الكتابات الجدلية والاستشراقية

٣- نشأة الكتابات الجدلية المسيحية ضد الإسلام ونبيه في العصر الوسيط

٤- نشأة الكتابات الجدلية اليهودية ضد الإسلام ونبيه في العصر الوسيط

٥- روافد الإسلام من خلال الكتابات الجدلية في العصر الوسيط

٦- دعوى الروافد الثقافية لنبي الإسلام (ﷺ) ميراث استشراقي من التراث الجدلي ضد الإسلام

(أ) الإشارات الأولى عن الروافد الثقافية لنبي الإسلام (ﷺ)

(ب) الكتابات الاستشراقية الأولى عن الروافد الثقافية لنبي الإسلام (ﷺ)

(ج) الكتابات الأكاديمية الأولى عن الروافد الثقافية لنبي الإسلام (ﷺ)

* * *

١- شخصية نبي الإسلام (ﷺ) بين الحقيقة والادعاء:

يكاد يكون الغلو هو السمة الرئيسة في معالجة شخصية نبي الإسلام (ﷺ) سلبا أو إيجابا.

ومن أبرز مظاهر هذا الغلو والشطط التشكيك في وجود شخصيته (ﷺ) على ساحة التاريخ الإنساني من الأساس؛ إذ يعلن بعض المستشرقين الروس أمثال "نيكولاي موروزوف" (Nikolai Morozov) و"لوسيان كليموڤيتش" (Lucien Klimowicz) رفضهم لتاريخية شخصيته (ﷺ)، بزعمهم أن النبي محمدا (ﷺ) ليس له وجود حقيقي، وأنه مجرد أسطورة، وأن قصة حياته مجرد قصة رمزية[١].

وبصرف النظر عن هذا الغلو الذي لايجد ما يبرره من وجهة النظر التاريخية، والذي يلقى رفضا من المستشرقين أنفسهم[٢]، فإن ثمة نوعا آخر من الغلو حول ماهية شخصيته (ﷺ)، يعكس هذا الغلو اتساع الهوة بين رؤية الشرق والغرب، أو بين رؤية المؤمنين برسالته والمنكرين لها، هذه الهوة التي ربما تكمن الحقيقة في موضع ما منها.

فمن جهة يغالي بعض المؤمنين بالرسالة المحمدية في نظرتهم لشخصيته (ﷺ) غلوا يتجاوز حدود البشرية التي قررها القرآن الكريم، ومن الجهة الأخرى يغالي بعض المنكرين لهذه الرسالة في كراهيتهم له (ﷺ)، ويتجاوزون الحدود في ذلك، وينعتونه بأبشع الأوصاف، ويرمونه بأقبح الألفاظ.

---

[١] בן שמש , עמ' יא.

[٢] يقول "بن شيمش" ردا على مزاعم المستشرقين الروس الذين زعموا بأن شخصية محمد ليست شخصية حقيقية، وإنما هي مجرد أسطورة وقصة رمزية: "ليس من شك في أن النبي محمد كان شخصية رائعة وعظيمة، غيرت وجه التاريخ العالمي".

انظر: שם , עמ' יא.

ومن مظاهر هذا الغلو اعتقاد بعض المسلمين أن كل ما يصدر عنه (ﷺ) وحيا لا اكتساب فيه، في حين يعتقد غير المؤمنين برسالته أن كل العناصر التي شكلت ثقافته ومعارفه (ﷺ) اكتسابا لا وحي فيها.

* * *

(أ) نظرة الغلاة من المسلمين لشخصية نبي الإسلام (ﷺ):

يرى بعض غلاة المسلمين في محمد (ﷺ) شخصية لاهوتية أو في نطاق اللاهوتية، ولقد وقع غير واحد من كتاب السير والشمائل وشراحها في هذا الغلو، سواء في سياق ذكر ما قبل نشأة الإنسان الأولى، أو في سياق ذكر نسب النبي (ﷺ) وحمله وولادته وبشائره، دون أن يكون لذلك أصل من قرآن أو سند من حديث صحيح أو دعامة من منطق معقول، ومما يؤيد أن ذلك لا يمثل إلا غلوا عدم ورود بعض هذه الأخبار مدونات السيرة الأقدم[١].

ويعتقد الباحث أن في ذلك دلالة إلى أن مثل هذه المرويات كانت وليدة مرحلة تاريخية معينة، تالية لمرحلة بداية الجدل المسيحي واليهودي ضد الإسلام بعد كتابات "يوحنا" الدمشقي (٦٧٥ – ٧٤٩م) و"رسالة الكندي"[٢].

ويبدو أن غلاة المسلمين لم يكتفوا بالوقوف عند الإنسان الكامل في النبي (ﷺ) الذي يتجلى في التميز الأخلاقي والصفاء النفسي وقوة الإيمان بربه وبرسالته وبمهمته التي اضطلع بها، ورأوا أنه لابد أن يكون من لوازم نبوته واصطفائه أن تكون ثمة مقدمات وبشائر، وإن كان فيها ما يُخرج النبي (ﷺ) عن النطاق الطبيعي للبشر ولسائر الأنبياء، ويدخله في نطاق اللاهوتية وما في معناها، وذلك رغم صراحة النصوص القرآنية الدالة على بشريته

---

[١] دروزة (محمد عزة) ، سيرة الرسول (ﷺ) – صورة مقتبسة من القرآن الكريم ، ج١ ، منشورات المكتبة العصرية ، بيروت ، ط ١٤٠٠هـ ، ص ١٧ – ١٨.

[٢] "رسالة الكندي": هي رسالة جدلية يرجح نسبتها إلى الطبيب والفيلسوف المسيحي "يحيى بن عدي" (٨٩٤ – ٩٧٥م).

(ﷺ)، وأنه لم يكن يعلم من أمر نبوته شيئا قبل نزول الوحي عليه، وأنه لم يكن بدعا من الرسل، وأنه لم يكن يعرف الغيب[١].

ومن الغلو في هذا الصدد الاعتقاد بأن النبي (ﷺ) لم يكتسب شيئا من المعارف خارج نطاق الوحي، سواء أكان ذلك قبل البعثة أو بعدها؛ لأن في ذلك تناقضا مع طبائع الأشياء[٢].

وفي تفسير قوله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾[٣] يقول "الزمخشري"[٤]: "ويَحتج بهذه الآية مَن لا يرى الاجتهاد للأنبياء، ويجاب بأن الله إذا سوغ لهم الاجتهاد، كان الاجتهاد وما يستند إليه كله وحيا لا نطقا عن الهوى".

بينما يرى "الرازي"[٥] أن الضمير "هو" إما أن يكون عائدا على القرآن، وبذلك يكون المعنى المراد "ما القرآن إلا وحي يوحى"، وإما أن يكون الضمير عائدا على قول النبي (ﷺ) وكلامه، وبذلك يكون المعنى المراد "ما كلامه وقوله (ﷺ) إلا وحي يوحى".

ويحتمل في لفظ "الوحي" أن يكون اسما أو مصدرا، فإن كان اسما فإنه يكون بمعنى "الكتاب"، وإن كان مصدرا فيكون له معان منها الإرسال والإلهام والكتابة والإشارة والكلام والإفهام[٦].

---

١ لمزيد من التفصيل حول هذه الفكرة ، انظر: دروزة ، ج١ ، ص ١٨ – ٢٢.

٢ دروزة ، ج١ ، ص ٤٤.

٣ النجم ٤.

٤ الكشاف ، ج ٥ ، تحقيق عادل أحمد عبد الموجود ، علي محمد معوض ، مكتبة العبيكان ، الرياض ، ط ١٩٩٨م ، ص ٦٣٦.

٥ مفاتيح الغيب ، ج ٢٨ ، دار الفكر ، بيروت ، ط ١٩٨١م ، ص ٢٨٢.

٦ حول معنى "الوحي" لغة وشرعا ، انظر: رضا (محمد رشيد) ، الوحي المحمدي ، مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر ، بيروت ، ط ثالثة ١٤٠٦هـ ، ص ٨١ – ٨٤، وحول أصناف الوحي في القرآن ، انظر: عتر (حسن ضياء الدين) ، وحي الله ، دار المكتبي ، دمشق، ط ١٩٩٠م ، ص ١٠٣ – ١٠٧، وحول الوحي في التوراة والإنجيل والقرآن ، انظر: عبد الوهاب (أحمد) ، الوحي والملائكة في اليهودية والمسيحية والإسلام ، مكتبة وهبة ، القاهرة ، ط ١٩٧٩م ، ص ٣٦ – ٧٧.

ويرى "الرازي"[١] أيضا أنه لا حجة في الآية لمن توهم أن النبي (ﷺ) ما كان ينطق إلا عن وحي، حتى وإن كان الضمير عائدا إلى "قوله وكلامه"؛ لأن المعنى هنا ينصرف إلى القول الذي كان المشركون يقولون عنه أنه شعر، وهو القرآن، ولا ينصرف المعنى إلى كل نطقه وكلامه.

وهو يرى كذلك أنه لا حجة في الآية لمن توهم أيضا أن النبي (ﷺ) لم يجتهد، فإنه قد اجتهد في الحروب وفي غيرها.

وقد ذهب بعض المفسرين في تفسير آيات سورة النجم (١ – ٤) إلى أنها تشمل كل ما صدر عن النبي (ﷺ) من قول أو فعل ديني أو دنيوي، وإلى أنها من الدلائل القرآنية على العصمة النبوية، مع أن ذلك يتعارض بنوع خاص مع النصوص التي فيها عتاب ولوم للنبي (ﷺ) على بعض ما صدر منه من اجتهادات[٢].

أما عن اجتهادات النبي (ﷺ) فيبدو أنها كانت نوعين؛ فمنها ما كان اجتهادا ملهَما ومنها ما كان اجتهادا شخصيا؛ ففي القرآن آيات عديدة تفيد أنه (ﷺ) كان يقدم على أمور ويعتزم عزائم باجتهاد منه أو بإلهام رباني، ثم يتنزل وحي قرآني فيه إقرار وتأييد أو عقاب وتثريب[٣].

* ومن أمثلة النوع الأول: الاجتهاد الملهَم

١ – وقعة بدر؛ إذ يبدو أن خروج النبي (ﷺ) مع أصحابه إلى بدر والوحي الرباني الذي أخبر به عن الوعد بإحدى الطائفتين كان إلهاما ربانيا، مؤيدا بالوحي القرآني؛ حيث نزلت الآيات (٥ – ٨) من سورة الأنفال تأييدا لذلك.

٢ – خروج النبي (ﷺ) مع أصحابه إلى مكة بقصد زيارة البيت الحرام في السنة السادسة للهجرة بناء على رؤيا رآها واعتبرها أمرا أو إلهاما ربانيا، ثم نزلت الآيات (٢٧ – ٢٨) من سورة الفتح تأييدا لهذه الرؤيا.

---

[١] ج ٢٨ ، ص ٢٨٢.

[٢] دروزة ، ج ١ ، ص ١٠٠.

[٣] المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٩٧.

* ومن أمثلة النوع الثاني: الاجتهاد الشخصي

١- قرار النبي (ﷺ) بأخذ الفداء من أسرى بدر، فعوتب على ذلك في الآيات (٦٧ – ٦٩) من سورة الأنفال.

٢- استغفار النبي (ﷺ) والمؤمنين لبعض أقاربهم من موتى المشركين، فعوتبوا على ذلك في الآيات (١١٣ – ١١٤) من سورة التوبة.

٣- إذنه (ﷺ) للذين استأذنوه بالتخلف عن غزوة تبوك، فعوتب على ذلك عتابا رقيقا في الآيات (٤٣ – ٤٥) من سورة التوبة.

٤- عبوسه (ﷺ) حينما جاءه الأعمى مسترشدا؛ لئلا يشغله عن حديثه مع أحد زعماء المشركين، فعوتب على ذلك في الآيات (١ – ١٠) من سورة عبس.

٥- ما اختلج في نفسه (ﷺ) من رغبة في مسايرة المشركين في بعض رغباتهم أو في التردد من تلاوة بعض ما أنزل الله (ﷻ) إليه في بعض حالات الضيق النفسي، فعوتب على ذلك في الآية (١٢) من سورة هود، والآيات (٧٣ – ٧٥) من سورة الإسراء.

٦- تحريم النبي (ﷺ) بعض ما أحله الله (ﷻ) له؛ إذ حلف على نسائه في ظرف من الظروف، فعوتب على ذلك عتابا رقيقا في الآيات (١ – ٢) من سورة التحريم[١].

وهذه الاجتهادات التي عوتب عليها النبي (ﷺ) في القرآن لا تمس بالعصمة النبوية، فهي تمثل اجتهادات لا ذنوبا، وإنما هي خلاف لما هو الأولى في علم الله (ﷻ) المغيب عنه (ﷺ) فيما لا وحي فيه، والعصمة الواجب الإيمان بها ليست هي التي تجعل النبي (ﷺ) يمتنع عليه أن يصدر منه أي قول أو فعل أو اجتهاد في مختلف شئون الحياة والناس، قد يكون فيه الصواب والخطأ وخلاف الأولى الذي في علم الله (ﷻ) والذي لا ينكشف له

---

[١] لمزيد من التفصيل حول موضوع اجتهادات النبي (ﷺ) ، انظر: دروزة ، ج ١ ، ص ٩٧ – ١٠٠.

إلا بوحي، وهذه العصمة النبوية لا يمكن لها أن تنفي الطبيعة البشرية النبوية المقررة في القرآن، ولكنها تنفي عنه (ﷺ) ارتكاب أي إثم أو فاحشة أو جريمة أو مخالفة للقرآن قولا وفعلا أو كتم ما أوحي به إليه أو تبديله أو تحريفه[١].

ومن أمثلة الاجتهادات الشخصية للنبي (ﷺ) التي كانت خلاف الأولى: ما ورد في شأن غزوة بدر من نزول النبي (ﷺ) في موضع ما، فراجعه في ذلك "الحباب بن المنذر بن الجموح" مستفسرا: "يا رسول الله، أرأيت هذا المنزل، أمنزلا أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه أو نتأخر عنه، أم هو الرأي والحرب والمكيدة ؟"، فقال له النبي (ﷺ): " بل هو الرأي والحرب والمكيدة"، فأشار على النبي (ﷺ) بموضع أكثر مناسبة، فرجع النبي (ﷺ) إلى رأيه[٢].

وعند "محمد بن سعد الزهري"[٣] زيادة عن رواية "ابن إسحاق" التي يرويها معظم أصحاب السير، وهي أن جبريل (عليه السلام) نزل على النبي (ﷺ) فقال: "الرأي ما أشار به الحباب بن المنذر"، فقال رسول الله (ﷺ):"يا حباب أشرت بالرأي"، فنهض رسول الله (ﷺ) ففعل ذلك.

وإذا صحت هذه الرواية يكون فيها دلالة على أن اجتهاد النبي (ﷺ) في اختيار موقع المعسكر كان خلاف الأولى، وليس في ذلك ما يناقض العصمة النبوية.

---

[١] دروزة ، ج ١ ، ص ١٠١.

[٢] انظر تفاصيل هذه القصة في: ابن هشام (عبد الملك) ، السيرة النبوية ، ج ٢ ، تحقيق عمر عبد السلام تدمري ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ط ثالثة ١٩٩٠م ، ص ٢٦٣ ؛ الطبري ، تاريخ الطبري – تاريخ الرسل والملوك ، ج ٢ ، ص ٤٤٠ ؛ ابن الأثير (علي بن محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني) ، الكامل في التاريخ ، ج ٢ ، تحقيق عبد الله القاضي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط ١٩٨٧م ، ص ١٩ ؛ ابن سيد الناس (أبو الفتح محمد بن محمد بن محمد)، عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير ، ج ١ ، تحقيق محمد العيد الخطراوي و محيي الدين مستو ، مكتبة دار التراث – المدينة المنورة ، ودار ابن كثير – دمشق وبيروت ، ط ١٤١٣هـ ، ص ٣٩٠.

[٣] الطبقات الكبير ، ج ٣ ، تحقيق علي محمد عمر ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ط ٢٠٠١م ، ص ٥٢٥.

ومن أمثلة الاجتهادات الشخصية للنبي (ﷺ) التي جانبت الصواب: ما روي من أنه مر بقوم يلقحون النخل، فقال لهم: "لو لم تفعلوا لصلح"، فخرج شيصا[١]، فمر بهم فقال: "ما لنخلكم ؟"، قالوا: "قلت كذا وكذا"، قال: "أنتم أعلم بأمر دنياكم"[٢].

ونخلص مما سبق إلى أنه من المغالاة الاعتقاد بأن كل ما يصدر عن النبي (ﷺ) من أقوال وأفعال يمثل وحيا، وأنه لا سبيل إلى اجتهاد النبي (ﷺ)، كذلك فإن العصمة النبوية لا تتناقض مع اجتهادات النبي (ﷺ) الشخصية في شئون الحياة، والتي يمكن أن تكون خلاف الأولى.

* * *

(ب) نظرة الغلاة من غير المسلمين لشخصية نبي الإسلام (ﷺ):

وعلى الطرف الآخر يغالي بعض المنكرين للرسالة المحمدية في كراهيتهم لنبي الإسلام (ﷺ)، وينسبون له كل النقائص البشرية، بل وصل الأمر إلى حد وصفه بـ "أول أبناء الشيطان"، ومن أمثلة ذلك قول "وليم" الصوري (١١٣٠ – ١١٨٥م) – أسقف صور الذي عاصر الحروب الصليبية – في حديثه عن النبي (ﷺ): "في زمن الامبراطور هرقل، وطبقا للروايات والتواريخ الشرقية حققت معتقدات محمد [ﷺ] الضارة موطئ قدم راسخ لها في الشرق، وهذا هو "أول أبناء الشيطان"، "المعْلِن بالكذب" أنه رسول مرسل من الله [ﷻ]، وبذلك أضل بلدان الشرق خصوصا بلاد العرب"[٣].

---

[١] الشيص: هو التمر الرديء.

[٢] النيسابوري (مسلم بن الحجاج القشيري) ، صحيح مسلم ، دار طيبة ، الرياض ، ط ٢٠٠٦م ، ح ٢٣٦٣ ، ص ١١١٠.

[٣] معدي (الحسيني الحسيني) ، الرسول (ﷺ) في عيون غربية منصفة ، دار الكتاب العربي ، دمشق والقاهرة ، ط ٢٠٠٦م ، ص ٣٧.

هذا السباب يبتعد بهذه الإقوال عن العلم، ويشير إلى المدى الذي وصلت إليه كراهية بعض المسيحيين للإسلام ونبيه (ﷺ) في ظل الحروب الصليبية.

وقد رسمت الكتابات الجدلية في العصر الوسيط لنبي الإسلام (ﷺ) صورة مشوهة ومغلوطة، جمعت أجزاء هذه الصورة في جنوبي فرنسا، وأسهم في تركيبها الفرسان العائدون من الحروب الصليبية إضافة إلى الكهنة والرهبان، لقد كان هؤلاء يزوِّدون المخيلة الأوربية أمام مواقد النار في الشتاء بطرائف عن الشرق والإسلام ونبيه (ﷺ)، ووصلت هذه الصورة الخيالية المتكونة إلى المدارس والأديرة الوسيطة بعد وضعها في شكل مدرسي يشجع على قبولها، وأدى ذلك في النهاية إلى انطباع شعبي مروِّع، وعجيب في قدرته على البقاء وفي مقاومته لكل المعلومات الصحيحة ونصف الصحيحة التي توالت فيما بعد، لقد كانت صورة محمد (ﷺ) والإسلام واضحة في أوربا؛ لكنها لم تكن صحيحة[١].

وسوف نشير فيما يلي إلى بعض ملامح هذه الصورة وبعض الأوصاف التي وُصِف بها نبي الإسلام (ﷺ) في كتابات العصر الوسيط وفي كتابات المستشرقين من بعدهم[٢]. ومن هذه الأوصاف:

١ – "نبي زائف":

ورد هذا الوصف عند "يوحنا" الدمشقي في كتاب "ينبوع المعرفة"[٣].

---

[١] سوذرن (ريتشارد) ، صورة الإسلام في أوربا في القرون الوسطى ، ترجمة رضوان السيد ، دار المدار الإسلامي ، بيروت ، ط ثانية ٢٠٠٦م ، ص ٦٥ – ٦٦.

[٢] يعزو الباحث هذه الأوصاف التي وردت في حق النبي (ﷺ) إلى بعض قائليها، ولا يعني ذلك استقصاء كل المواضع التي وردت فيها هذه الأوصاف أو عند كل الكتاب والمستشرقين الذين رددوا هذه الأوصاف.

[٣] "ينبوع المعرفة": كتاب كتبه "يوحنا" الدمشقي باليونانية، وقسمه إلى ثلاثة أقسام: مقدمة فلسفية ومقدمة تاريخية وخلاصة لاهوتية. والقسم الثاني هو الذي يطلق عليه "مقدمة الهرطقات المائة"، وهذا الكتاب (ينبوع المعرفة) موجود في "موسوعة الآباء" اليونانية، وليس له ترجمة عربية كاملة حتى الآن.

انظر: عبد المحسن (عبد الراضي محمد) ، الغارة التنصيرية على أصالة القرآن الكريم ، بحث منشور في مطبوعات ندوة "عناية المملكة بالقرآن الكريم وعلومه" ، ج ٥ ، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف ، المدينة المنورة ، ١٤٢٤ هـ ، ص ١٣٦.

يقول "يوحنا": "إن العرب كانوا وثنيين حتى ظهر بينهم زمن الإمبراطور هرقل [٥٧٥ – ٦٤١م] "نبي زائف" يدعى محمد [ﷺ]"[١].

وورد هذا الوصف أيضا عند "ماراتشي" (Marracci) في كتابه "دراسة عن الإسلام" المسمى "تفنيد القرآن"؛ حيث اعتبر "ماراتشي" محمدا (ﷺ) "مؤلفا للقرآن"، و"نبيا زائفا ومضللا"[٢].

٢- "كذاب وغشاش":

ورد هذا الوصف عند المستشرق "رينهارت دوزي" (Reinhart Dozy) في كتابه "تاريخ الإسلام منذ فجره"[٣].

٣- "دجال":

ورد هذا الوصف عند المستشرق "جريم " (H. Grimme) في كتابه "محمد"؛ إذ يرى أن محمدا (ﷺ) كان محرضا ومثيرا للفتن، وفي المدينة تحول إلى "دجال"[٤].

وورد هذا الوصف أيضا عند "مرجوليوث" (Margoliouth) في كتابه "محمد ونهضة الإسلام"؛ إذ يرى أن محمدا (ﷺ) كان "دجالا ماكرا" "معدوم الضمير"، وسياسيا "يخدع الآخرين بشعوذاته"[٥].

---

١ Chase (Frederhc H.) , The Fathers of the Church , vol. 37 , Fathers of the Church Inc. , New York , 1958 , p. 153.

٢ زقزوق ، الإسلام في تصورات الغرب ، ص ١٣٨. [بفانموللر]

تنويه: هذا الكتاب "الإسلام في تصورات الغرب" من تأليف محمود حمدي زقزوق، وهو مكون من أربعة فصول: أولها بعنوان: الاستشراق من وجهة النظر الإسلامية، أما الفصول الثلاثة التالية، فهي مختارات قام المؤلف بترجمتها من كتاب "موجز في آداب علوم الإسلام" للمستشرق الألماني "چوستاف بفانموللر"، وأضاف إليها المؤلف بعض الهوامش والتعليقات.

وعند توثيق الباحث للنصوص المنسوبة إلى "بفانموللر" الواردة في هذا الكتاب، يتم إلحاق التوثيق باسم هذا المستشرق بين قوسين، هكذا [بفانموللر] ، وذلك لتمييزها عن آراء مؤلف الكتاب.

٣ زقزوق ، الإسلام في تصورات الغرب ، ص ٣١. [بفانموللر]

٤ المرجع السابق ، ص ١٧٠. [بفانموللر]

٥ المرجع السابق ، ص ١٨٥. [بفانموللر]

٤- "ساحر ومنجم":

ورد هذا الوصف في نشرة طبعت بدون عنوان في بداية القرن السادس عشر الميلادي عام ١٥١٥م [١].

٥- "مهرطق ومبتدع":

تعود فكرة النظر إلى محمد (ﷺ) على أنه "مهرطق"، وإلى الإسلام على أنه مجرد فرقة مسيحية مهرطقة إلى "يوحنا" الدمشقي[٢].

وورد وصفه (ﷺ) بأنه "مبتدع" في "المقالة الإسبانية"، وهي مقالة لا يُعرف كاتبها، ظهرت في أحد الأديرة الشمالية بإسبانيا (القرن الثامن الميلادي)، وهي نص هجومي على النبي (ﷺ) يتهمه بأنه كان "كاذبا ومبتدعا وشهوانيا"[٣].

٦- "قذر وشرير":

ورد هذا الوصف عند "بطرس" (المبجل ؟!!)، الذي ينسب إليه القيام بالإشراف على الترجمة اللاتينية الأولى للقرآن عام ١١٤٣م[٤].

٧- "مجرم":

ورد هذا الوصف عند "چورچ سال" (George Sale)؛ إذ يقول: "لما فحصت شخصية محمد [ﷺ] فحصا دقيقا كانت الصورة فظيعة معيبة ... إن أي قُطر ليخجل من إنجاب مثل هذا "المجرم""[٥].

---

[١] بدوي (عبد الرحمن) ، دفاع عن محمد (ﷺ) ضد المنتقصين من قدره ، ترجمة كمال جاد الله ، الدار العالمية للكتب والنشر ، القاهرة ، ط ١٩٩٩م ، ص ١٩.

[٢] عنون "يوحنا" الدمشقي الفصل الأخير في "مقدمة الهرطقات المائة" من كتاب "ينبوع المعرفة" بعنوان "هرطقة الإسماعيليين"، وقد اعتبر "يوحنا" الدمشقي الإسلام الهرطقة المائة بين الهرطقات المسيحية.

[٣] معدي ، ص ٢٥.

[٤] المرجع السابق ، ص ٣٤.

[٥] بودلي (ر. ف.) ، الرسول – حياة محمد ، ترجمة عبد الحميد جودة السحار ، ومحمد محمد فرج ، دار الكتاب العربي ، مصر ، ط ١٩٤٧م ، ص ١٦.

٨- "لص وقاطع طريق وسفاك للدماء":

وردت هذه الأوصاف في رسالة الكندي[١].

٩- "غادر ومؤمن بإبليس ووكيل المسيح الدجال والمستنقع لكل الرذائل":

وردت هذه الأوصاف عند "أولوجيوس" الذي كان مطرانا لـ "طليطلة"، وقد كتب رواية عن "حركة الاستشهاد"[٢].

وقد وصف الإسلام في روايته بأنه العقيدة الضالة وخدعة الشيطان الماكرة، وذكر أن الإسماعيليين يعظمون "نبيا كاذبا"، وأن هذا النبي "غادر" بطبعه ومؤمن بإبليس، ووكيل المسيح الدجال، والمستنقع لكل الرذائل، وسوف يُلقى به في نار جهنم، وأن تعاليمه العقيمة كتبت على أتباعه عذاب النار السرمدي، وأن الذي تراءى له في هيئة ملاك إنما هو الشيطان[٣].

ومثل هذه الأقوال المرسلة لا قيمة لها من الناحية العلمية، وهي لا تزيد عن كونها سبابا يفضح مشاعر الكراهية التي فاضت بها قلوب قائليها.

وبين المغالين من الطرفين تتدرج الآراء حول شخصية نبي الإسلام (ﷺ)، فيرى فيه معظم المسلمين النبي المعصوم الذي يمثل نموذجا للكمال الإنساني الذي لا يخرج عن حدود البشرية، ويرى فيه بعض المستشرقين نموذجا فريدا للرقي العقلي والروحي والأخلاقي، دون الإيمان بعصمته أو نبوته، في حين يرى فيه البعض الآخر العديد من النقائص البشرية، لكن لا يصلون في نقدهم له إلى حد السباب والشتائم التي عرضنا لبعضها آنفا.

* * *

---

[١] الكندي (عبد المسيح بن إسحاق) ، رسالة الكندي ، دار التكوين للنشر والتوزيع ، دمشق ، ط ٢٠٠٥م ، ص ٥٢ ، ٥٥.

[٢] "حركة الاستشهاد": هي حركة ظهرت في القرن التاسع الميلادي في الأندلس. كان أفراد هذه الحركة يقومون بسب النبي (ﷺ) علنا، فيؤخذون إلى القاضي فيكررون السب والشتم، الأمر الذي أدى إلى الحكم بالإعدام على عدد منهم، تذكر المصادر الإسبانية أن عددهم يبلغ خمسين شخصا. وكان "أولوجيوس" أحد أفراد هذه الحركة، وقد سب النبي (ﷺ) فحكم عليه بالإعدام عام (٢٤٥هـ / ٨٥٩م).

[٣] معدي ، ص ٢٦.

٢ – اتهامات المكيين لمحمد (ﷺ) أصل الكتابات الجدلية والاستشراقية:

عندما ظهر الإسلام في مكة، رأى المكيون في الإسلام خطرا يهدد معتقداتهم الراسخة ويهدد مصالحهم الاقتصادية ومكانتهم الاجتماعية، وبعد أن كان محمد (ﷺ) بالنسبة لهم الصادق الأمين قلبوا له ظهر المجن، وكالوا له الاتهامات الكثيرة والمتنوعة، بل المتناقضة أيضا.

وتشير كثرة هذه الاتهامات وتنوعها إلى أن الاتهام كان هدفا مقصودا في حد ذاته؛ لتشويه صاحب هذه الدعوة التوحيدية الجديدة، وكان من بين هذه الاتهامات وأخطرها تهمة تلقي علوم السابقين وأساطير الأولين على أيدي بعض الغلمان الكتابيين أو بعض اليهود.

تلقف بعض الجدليين من المسيحيين المشارقة تلك الاتهامات، وطوروها بإضافة أو حذف أو تغيير بعض عناصرها، وانتقلت هذه الاتهامات إلى أوربا وترعرعت فيها بعد أن روتها وغذتها جذور الكراهية والتعصب ضد الإسلام والمسلمين، وبخاصة بعد الحروب الصليبية، ثم جاء الاستشراق وطور تلك الاتهامات ملبسا إياها ثوب العلمية، ومحولا إياها إلى دراسات أكاديمية.

وقد حفظت لنا آيات القرآن جانبا من هذه الدعاوى والاتهامات، وردَّ القرآن على هذه الدعاوى بالنفي والاستنكار، ومن ذلك:

- ﴿قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ﴾[١]
- ﴿وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ﴾[٢]

---

[١] يونس ٢.

[٢] ص ٤.

- ﴿وَقَالُواْ يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾[١]
- ﴿وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ﴾[٢]
- ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ﴾[٣]
- ﴿فَذَكِّرْ فَمَا أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ﴾[٤]
- ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ﴾[٥]
- ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ﴾[٦]
- ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ. وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ﴾[٧]

وحفظت لنا آيات القرآن أيضا اتهام المكيين لمحمد (ﷺ) بأنه "مُعَلَّم"، تلقى العلم عن آخرين، وكذلك طعنهم في المصدر الإلهي للقرآن، وزعمهم أن هذا القرآن ما هو إلا نتاج هذه العملية التعليمية التي تلقى فيها محمد (ﷺ) العلم عن رجل أعجمي أو عن قوم آخرين، وكذلك وصفهم للقرآن بأنه أساطير الأولين التي أُمليت على محمد (ﷺ) من جانب معلميه، أو أنه أضغاث أحلام، أو أنه من أقوال الشياطين، ومن ذلك:

- ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاؤُوا ظُلْمًا وَزُورًا. وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾[٨].

---

١ الحجر ٦.
٢ الصافات ٣٦.
٣ الطور ٣٠.
٤ الطور ٢٩.
٥ التكوير ٢٢.
٦ يس ٦٩.
٧ الحاقة ٤١ – ٤٢.
٨ الفرقان ٤ – ٥.

- ﴿ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ﴾[١]
- ﴿حَتَّى إِذَا جَآؤُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِنْ هَذَآ إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾[٢]
- ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ﴾[٣]
- ﴿بَلْ قَالُواْ أَضْغَاثُ أَحْلاَمٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الأَوَّلُونَ﴾[٤]
- ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ﴾[٥]

وقد ذكر المفسرون أقوالا متعددة في اسم هذا الغلام الذي كان رقيقا كتابيا، والذي زعمت قريش أن محمدا (ﷺ) يجلس إليه، ويتعلم منه، فقيل: اسمه "بلعام"، وقيل: "عداس"، وقيل: "يعيش" أو "عائش"، وقيل: "جبر"، وقيل: بل هما غلامان "جبر" و"يسار"، وقيل: "جبر" و"ثبت"، وقيل: "عابس" و"يسار"، وقيل: غلام اسمه "أبو ميسرة"، وقيل: "سلمان الفارسي"[٦].

---

[١] الدخان ١٤.

[٢] الأنعام ٢٥.

[٣] النحل ١٠٣.

[٤] الأنبياء ٥.

[٥] التكوير ٢٥.

[٦] الأندلسي (أبو حيان محمد بن يوسف) ، البحر المحيط ، ج ٥ ، تحقيق عادل أحمد عبد الموجود ، علي محمد معوض ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط ١٩٩٣م ، ص ٥١٨ – ٥١٩ ؛ الطبري (محمد بن جرير) ، جامع البيان عن تفسير آي القرآن ، ج ١٤ ، تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركي ، دار هجر ، القاهرة ، ط ٢٠٠١م ، ص ٣٦٥ – ٣٦٨ ؛ القرطبي (محمد بن أحمد بن أبي بكر) ، الجامع لأحكام القرآن ، ج ١٢ ، تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركي ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط ٢٠٠٦م ، ص ٤٢٨ – ٤٣٠ ؛ الزمخشري ، ج ٣ ، ص ٤٧٤ ؛ الرازي ، ج ٢٠ ، ص ١١٩.

قال "القرطبي"[١] معلقا على تعدد الآراء في ذلك: "والكل محتمل؛ فإن النبي (ﷺ) ربما جلس إليهم في أوقات مختلفة ليعلمهم مما علمه الله (ﷻ)، وكان ذلك بمكة"، لكن القرطبي استبعد "سلمان الفارسي"؛ لأن سلمان أتى النبي (ﷺ) بالمدينة، وهذه الآية مكية.

وذكر أيضا أن مولى "جبر" كان يضربه ويقول له: أنت تعلم محمدا [ﷺ]. فيقول: لا والله، بل هو يعلمني ويهديني[٢].

وقد ذكر المفسرون في "أساطير الأولين"[٣] عدة آراء، فقيل: هي أحاديث ملوك فارس، وقيل: هي أشعار الأولين وكهانتهم، وقيل: هي أحاديث الأولين التي كانوا يسطرونها في كتبهم، اكتتبها محمد (ﷺ) من اليهود، وأن المعنيين بقوله تعالى: "وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ" هم اليهود، وقيل: بعض رقيق مكة الذين سبق ذكرهم[٤].

ويعد هذا الجدل الموجه من المكيين ضد الإسلام ونبيه (ﷺ) هو الأصل الذي قامت عليه الكتابات الجدلية في العصر الوسيط، ثم جاء الاستشراق ليلبس هذه الجدليات ثوب العلمية ويطورها في مرحلة لاحقة إلى دراسات أكاديمية. وتعد هذه الجدليات المكية البذرة الأولى التي انبثقت منها دعوى وجود روافد ومصادر غير إلهية أمدت نبي الإسلام (ﷺ) بمعارفه وثقافته الدينية التي ظهرت أصداؤها في القرآن، من وجهة نظر منكري لرسالته.

* * *

---

[١] ج ١٢ ، ص ٤٣٠.

[٢] المرجع السابق ، ج ١٢ ، ص ٤٢٨.

[٣] يعتقد المستشرق "ألويس شبرنجر" أن "أساطير الأولين" المذكورة في القرآن هي اسم لكتاب قديم، لا يُعرف مصدره أو محتواه على وجه الدقة!

انظر: Sprenger (A.) , The life of Mohammad from original sources , The Presbyterian Mission Press , Allah Abad , 1851 , p 99.

[٤] الأندلسي ، ج ٦ ، ص ٤٤١ ؛ الرازي ، ج ٢٤ ، ص ٥٠ – ٥١ ؛ الزمخشري ، ج ٤ ، ص ٣٣١ – ٣٣٢ ؛ الطبري ، جامع البيان عن تفسير آي القرآن ، ج ١٧ ، ص ٣٩٨ – ٤٠١ ؛ القرطبي ، ج ١٥، ص ٣٦٨.

٣- نشأة الكتابات الجدلية المسيحية ضد الإسلام ونبيه في العصر الوسيط:

تلقف الدفاعيون من المسيحيين المشارقة، من أمثال "يوحنا" الدمشقي وغيره، بعض الاتهامات التي وجهها المكيون لنبي الإسلام (ﷺ)، والتي ظهرت أصداؤها في القرآن الكريم، واستخدمها هؤلاء الدفاعيون في كتاباتهم الجدلية ضد الإسلام، بعد أن غيروا بعض ملامحها.

يزعم "يوحنا" أن النبي محمدا (ﷺ) "نبي زائف"، اطلع على العهدين القديم والجديد، وتعلم من راهب آريوسي[١]، ثم تظاهر بالتقوى حتى استمال العرب إليه، وأخبرهم أنه تلقى كتابا من السماء، وقدم شرائعه لهؤلاء القوم على أنها مقدسة[٢].

ويعرض لنا "يوحنا" جانبا من جدله مع المسلمين قائلا: "ولكننا نسأل كيف نزل الكتاب على نبيكم ؟ فيجيبون بأن الكتاب نزل عليه عندما كان نائما، عندها نقول لهم مازحين، بما أنه تسلَّم الكتاب في نومه، ولم يكن في وعيه، فسينطبق عليه المثل الشهير القائل: أنت تقص علي الأحلام"[٣].

وكأن "يوحنا" يحاول أن يقر واقعا يرتكز عليه في جدله مع المسلمين، وهو أن المسلمين متفقون على أن النبي محمدا (ﷺ) تسلم كتابه القرآن وهو نائم. وهذا ما يتناقض في الأصل مع معتقدات المسلمين.

ويتفق "يوحنا" في تصوره مع العديد من تصورات المكيين بصفة عامة، مع الاختلاف في بعض التفاصيل، فمحمد (ﷺ) بالنسبة للمكيين "كذاب"، وبالنسبة له "نبي زائف"، ومحمد (ﷺ) بالنسبة للمكيين "مُعَلَّم" على أيدي أحد

---

١ "آريوسي": نسبة إلى "آريوس" (٢٥٦ – ٣٣٦م) الذي نشأ في كنيسة الإسكندرية، ثم اعتبرته الكنيسة أحد الهراطقة ؛ لأنه قال ببشرية السيد المسيح عليه السلام، ورفض الإيمان بألوهيته.

٢ Chase , p 153.

٣ Ibid. , p 155.

غلمان مكة من أهل الكتاب، وبالنسبة له "تعلم من راهب آريوسي"، وما يقوله محمد (ﷺ) هو بالنسبة للمكيين "أساطير الأولين"، وبالنسبة له "قصص التوراة والإنجيل"، ونبوءات محمد (ﷺ) بالنسبة للمكيين هي مجرد "أضغاث أحلام"، ويحاول "يوحنا" أن يقرر بجدله أن محمدا (ﷺ) تلقى كتابه وهو "نائم".

لكن "يوحنا" يحاول أن يكون أكثر منطقية في طرحه، عندما ينسب لمحمد (ﷺ) التعلم على أيدي "راهب آريوسي"، وذلك في مقابل سذاجة الطرح الذي يطرحه المكيون؛ إذ ليس من المنطقي أن يمتلك أحد الغلمان من رقيق مكة كل تلك المعارف التي يزعم المكيون أن محمدا (ﷺ) تلقاها منه أو من غيره من بين هؤلاء الرقيق.

ورغم هذه الاختلافات الطفيفة بين تصورات المكيين وتصورات "يوحنا" الدمشقي، إلا أن ثمة اتفاقا في الخطوط العريضة بين كلا التصورين، فمحمد (ﷺ) في كلتا الحالتين تلقى معارفه من معلم أو أكثر، وهو ليس بنبي حقيقي، وما يقوله ليس وحيا إلهيا، في زعمهم.

على أية حال، فإن ثمة من يرى أن الهدف الرئيس لـ "يوحنا" من وراء تأليف "هرطقة الإسماعيليين" هو تحصين المسيحيين من أهل الذمة في بلاد الشام، والحيلولة بينهم وبين اعتناق الإسلام[١].

وهناك ملامح وتفاصيل جديدة بشأن الروافد التي يُزعم أن النبي محمدا (ﷺ) استقى منها معارفه وتعاليمه، نلمحها في تلك الرسالة المسماة بـ "رسالة الكندي"، والتي يرجح نسبتها إلى الفيلسوف والطبيب المسيحي "يحيى ابن عدي" (٨٩٤ – ٩٧٥م).

---

[١] زقزوق (محمود حمدي) ، الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري ، دار المعارف ، القاهرة ، ط ١٩٩٧م ، ص ١٩ ؛ رودنسون (مكسيم) ، الصورة العربية والدراسات الغربية الإسلامية ، بحث منشور في تراث الإسلام ، ج١ ، تصنيف جوزيف شاخت وكليفورد بوزورث ، ترجمة حسين مؤنس وآخرَيْن ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت ، سلسلة عالم المعرفة ، العدد الثامن ، ١٩٨٥م ، ص ٣٠ – ٣١

ولا نجد لهذه الرسالة ذكرا في المصادر العربية إلا عند "البيروني" (٩٧٣ – ١٠٤٨م) الذي اقتبس منها نصا في حديثه عن الصابئة[١].

والرسالة المذكورة عبارة عن رسالة مرسلة من رجل مسلم يدعى "عبد الله بن إسماعيل الهاشمي" إلى صديق مسيحي يدعى "عبد المسيح بن إسحاق الكندي"، وتذكر الرسالة بأن الهاشمي هو أحد أقرباء الخليفة المأمون، وأن الكندي كان يعمل في بلاط الخليفة نفسه. وكلا الاسمين مستعاران[٢].

ويذكر "وليم موير" (William Muir)[٣] أن أحد العلماء الذين عرضت عليهم الرسالة افترض أن الهاشمي هو مجرد شخص متخيل، تم وضعه كي يلعب دور ممثل الإسلام، كي يحدد حجة المسيحي، وعلى حد تعبيره مجرد "مخلب قط"، وكان مبرره في هذا الافتراض أن حجة الإسلام معروضة بضعف، وفي أغلب الاحتمالات قد تم اختلاقها.

بيد أن "موير" يحاول نفي هذه الفرضية، لكنها رغم ذلك تظل هي الأقرب إلى الصحة، خاصة إذا وضعنا في الحسبان أن حجة المسيحي معروضة في حجم يقارب ستة أضعاف حجة المسلم؛ إذ تشغل رسالة المسلم ٢٣ صفحة في حين تشغل رسالة المسيحي ١٤٢ صفحة[٤]، بحيث يترك جواب المسيحي انطباعا لدى القارئ المسيحي أنه نال الغلبة والقهر بالحجة والبرهان[٥].

ويوجه مؤلف هذه الرسالة هجومه إلى النبي (ﷺ)، فيتهمه بأنه كان "وثنيا" يعبد اللات والعزى مع عمومته وأهل بيته بمكة، ولما تزوج خديجة

---

١ معدي ، ص ٣١ ؛
Muir (William) , The Apology Of Al Kindy , Society For Promoting christian Knowledge , London , second edition 1887 , p 13.

٢ Muir , p 19.

٣ Ibid. , p 32.

٤ Ibid. , p 16.

٥ معدي ، ص ٣٢.

(رضي الله عنها) وتقوَّى بمالها، تطلَّع إلى الملك على قومه، فلما أبت قريش اتباعه في ذلك ادعى النبوة[١].

ويدَّعي مؤلف الرسالة أيضا أن أحد رهبان الكنيسة المطرودين، اسمه "سرجيوس"، جاء إلى تهامة، ثم دخل مكة واحتال على محمد (ﷺ) واستماله وتسمى عنده "نسطوريوس" وقد أبعده عن عبادة الأصنام ثم صيره تلميذا له وداعيا يدعو إلى النسطورية[٢]، وكان محمد (ﷺ) يسميه في كتابه "جبريل" و"الروح الأمين"[٣].

وينفي مؤلف الرسالة عن النبي (ﷺ) قدرته على القيام بأية معجزات[٤].

ثم يوجه مؤلف الرسالة هجومه إلى القرآن، فيدَّعي تحريف القرآن وتناقضه بسبب كثرة الأيدي التي تناولته بالتغيير والتبديل[٥]، ويشير إلى وجود كلمات غير عربية في القرآن، ويزعم أن لغة القرآن ليست بمعجزة، ويعتبر لغة الشعراء، ومنهم امرؤ القيس، أفصح وأقوى من لغة القرآن[٦].

ويهاجم مؤلف الرسالة شعائر الإسلام، ويعتبر شعائر الحج من أعمال الوثنية[٧].

ويتفق مؤلف هذه الرسالة مع رؤية "يوحنا" الدمشقي والمكيين في أن محمدا (ﷺ) كان "نبيا زائفا"، وأنه "مُعَلَّم"، لكنه يرى أن معلمه هو أحد الرهبان

---

[١] الكندي ، ص ٤٧ – ٤٨.

[٢] "النسطورية": نسبة إلى "نسطوريوس" (٣٨١ – ٤٥١م) الذي ولد في "سوريا" وترهب في "أنطاكية"، وقد أيد نسطوريوس كمال ناسوت المسيح، وشدد على التمييز بين لاهوته وناسوته، واعتبر أن مريم ولدت طبيعة المسيح الإنسانية وليس طبيعته الإلهية، ورفض أن يطلق على العذراء مريم لقب "والدة الإله". ويعتقد النساطرة أن يسوع المسيح مكون من جوهرين يعبر عنهما بالطبيعتين، وهما: جوهر إلهي وهو الكلمة، وجوهر إنساني وهو يسوع، وليس بين الطبيعتين اتحاد، ولكن يوجد بينهما صلة.

[٣] الكندي ، ٨٢ – ٨٣.

[٤] المرجع السابق ، ص ١١٦.

[٥] المرجع السابق ، ص ٨٢ – ٨٥.

[٦] المرجع السابق ، ص ٩١ – ٩٢.

[٧] المرجع السابق ، ص ١٠٩.

النساطرة المطرودين من الكنيسة، واسمه "سرجيوس"، وعلى الرغم من اتفاق مؤلف هذه الرسالة مع "يوحنا" في أن المعلم هو أحد الرهبان، إلا أننا نجده يختلف معه في المذهب الذي يعتنقه هذا الراهب، فيراه "يوحنا" آريوسيا، في حين يراه مؤلف هذه الرسالة نسطوريا.

ويبدو أن هدف كاتب هذه الرسالة لا يختلف كثيرا عن هدف "يوحنا" الدمشقي، فكلاهما أراد تحصين المسيحيين المشارقة؛ لمنعهم من اعتناق الإسلام.

هذه الاتهامات الموجهة من هؤلاء الجداليين أمثال "يوحنا" الدمشقي (٥٥ – ١٣١هـ) ومؤلف رسالة الكندي الذي يُرجح أنه "يحيى بن عدي" (٢٨٠ – ٣٦٤هـ)، هي مجرد آراء شخصية وأقوال مرسلة لا تستند على أدلة تاريخية معتبرة، ولم يذكر أي منهما المصدر الذي اعتمد عليه في الحصول على هذه المعلومات، ولا يمكن اعتبار أي منهما شاهد عيان، فلم يكن أي منهما معاصرا للنبي محمد (ﷺ)، ولم يكن أي منهما من أهل الجزيرة العربية، فقد نشأ الأول في الشام، في حين نشأ الثاني في العراق.

إن عدم الاستناد على مصادر تاريخية، وهذا الانقطاع الزماني والمكاني كفيلان وحدهما بهدم قيمة مثل هذه الآراء الشخصية والأقوال المرسلة، فضلا عن التناقض بين المعلومات التي يوردها كل منهما، والتي يضعف بعضها بعضا، ومن ذلك الاختلاف حول المذهب الذي يعتنقه الراهب الذي زعم كل منهما أنه كان معلما لمحمد (ﷺ).

لقد كان "يوحنا" مدفوعا في كتابته عن الإسلام والمسلمين ونبيهم (ﷺ) بدافع من مشاعر الكراهية، هذه المشاعر التي طغت على الحس العلمي والموضوعي والتاريخي لديه.

أما رسالة الكندي فيكفي للقدح في قيمتها العلمية والتاريخية أن كاتبها غير معروف على وجه التحديد، وقد سبقت الإشارة في التمهيد إلى أهمية معرفة كاتب الأصل التاريخي[١].

إن هذه الكتابات، وما كان على شاكلتها، تدخل في إطار ما يسمى بـ "الكتابات الجدلية"، وقد اتسمت بعض هذه الكتابات الجدلية بنوع من العقم الفكري، فضلا عما تزخر به من تزوير وتلفيق؛ إذ إن المجادلين على اختلاف مشاربهم لم يزيدوا على تكرار الشبهات الجدلية للمكيين، بعد أن قاموا بإحلال رموز يهودية ومسيحية محل رموز المكيين[٢].

وتمثل هذه المصادر الشرقية مرحلة بدايات الجدل التنصيري في المشرق، وهي من أهم أدوار الجدل التنصيري وأخطرها؛ إذ ألّفت قاعدة الجدل والأساس الذي بنى عليه المنصرون جدلياتهم في مراحل التنصير وأدواره المختلفة[٣].

وقد كان الجدل في هذه المرحلة جهدا فرديا يتوقف على قدرات المجادل وثقافته، لكن بسبب إجادة المجادلين الشرقيين للغة القرآن الكريم، فقد جاءت مجادلاتهم مكتظة باستشهادات مغلوطة من النصوص القرآنية، ما أعطى لها نفوذا روحيا وفكريا وعقديا على التراث الجدلي التنصيري بأكمله، وقد تبوأت جدليات "يوحنا" الدمشقي، وكذلك "رسالة الكندي" مكانة مرموقة عند المبشرين في إطار العمل التنصيري[٤].

ويرى "ريتشارد سوذرن" (Richard Southern)[٥] أنه بحلول القرن الثاني عشر الميلادي كانت أعمال "يوحنا الدمشقي" قد عرفت في أوربا.

---

١ راجع: ص ١٨ من هذه الدراسة.

٢ عبد المحسن ، ص ١٤٣.

٣ المرجع السابق ، ص ١٤٢.

٤ المرجع السابق ، ص ١٤٢ – ١٤٣.

٥ ص ٨١.

ويبدو للباحث أنها عرفت قبل ذلك بوقت طويل؛ إذ نجد أصداء لكتابات "يوحنا" عند "تيقتاس البيزنطي" (القرن التاسع الميلادي)[١].

ومن الجدير بالذكر أن "رسالة الكندي" آنفة الذكر كانت واحدة من أهم الأعمال التي تمت ترجمتها إلى اللاتينية ضمن ما يعرف بـ"المشروع الكلوني" الذي أشرف عليه "بطرس" (المبجل ؟!!)[٢].

وبعد الانتهاء من هذا المشروع، قام "بطرس" بتأليف ردين على الإسلام؛ أولهما: بعنوان "المجمع الكامل عن الهرطقة الإسلامية"، وثانيهما: بعنوان "الدحض".

وقد قدم "بطرس" إلى قرائه مختصرا مشوها لسيرة الرسول (ﷺ)، وزعم بأن مصادر القرآن هي: إبليس وسرجيوس ونسطوريوس، ووصف القرآن بأنه "كتاب شيطاني" تم تصنيفه من الخرافات اليهودية والأغاني العابثة للهراطقة[٣].

ويزعم "بطرس" أن راهبا يدعى "بحيرا"، واسمه الأصلي "سرجيوس"، كان من الهراطقة النساطرة، وأنه ارتحل إلى جزيرة العرب والتقى هناك بمحمد (ﷺ) ولقنه تعاليم العهدين القديم والجديد، إضافة إلى بعض الخرافات الواردة في الأناجيل المزيفة، وكانت هذه التعاليم على المذهب النسطوري

---

[١] انظر: ص ٥٤ من هذه الدراسة.

[٢] "بطرس المبجل": ويطلق عليه أيضا الموقر أو المحترم أو المكرم (١٠٩٤ – ١١٥٦م): كان رئيسا لدير كلوني بجنوب فرنسا. وينسب "المشروع الكلوني" إلى هذا الدير، ويعتبر هذا المشروع بمثابة المشروع العالمي الأول لدراسة الإسلام، وقد بدأ عام (٥٣٧هـ / ١١٤٣م). وكان "بطرس" رئيس هذا الدير قد قام برحلة إلى شمال إسبانيا عام (٥٣٦هـ / ١١٤٢م) لزيارة الأديرة الكلونية في تلك المناطق. وهناك علم من بعض المترجمين بوجود رسالة مكتوبة باللغة العربية لمسيحي شرقي تدافع عن المسيحية وتهاجم الإسلام، وقد تعرف منهم "بطرس" على مضمون هذه الرسالة، فقرر القيام بمشروع ترجمتها وترجمة القرآن الكريم وبعض المصنفات الأخرى إلى اللاتينية؛ بهدف دحض الإسلام والرد عليه. ولعل أخطر ما في هذا المشروع هو ترجمة القرآن إلى اللاتينية، وترجمة هذه الرسالة المسماة بـ "رسالة الكندي". انظر: معدي ، ص ٢٧.

[٣] المرجع السابق ، ص ٣٤ – ٣٦.

الذي لا يعترف بألوهية المسيح[١]، ويزعم أن محمدا (ﷺ) ادعى كذبا بأن هذه المجموعة من التعاليم جلبت إليه سورة وراء سورة بواسطة جبريل (عليه السلام) الذي عرف اسمه من الكتاب المقدس[٢].

يقول " چوستاڤ بفانموللر" (Gustav Pfannmuller)[٣] عن أعمال هذا المشروع الكلوني: "إنها لا ترسم مجرد الجدل الأوربي ضد الإسلام فحسب، بل أصبحت المصدر الرئيس أيضا للتصورات غير المعقولة التي صارت فيما بعد مألوفة لدى المسيحيين عن حياة محمد [ﷺ] وتعاليمه"، وهو ينسب إلى مؤلفات "بطرس" غالبية المؤلفات الجدلية التي جاءت بعده خلال العصر الوسيط والتي يظهر فيها محمد (ﷺ) ليس بوصفه "نبيا زائفا ومضللا" فحسب، بل "محتالا وضيعا" ومن "عشاق اللذة"، على حد وصفه.

ورغم الأهمية التي يمثلها "المشروع الكلوني" في تاريخ الجدل المسيحي ضد الإسلام في أوربا، إلا أن أوربا كانت قد بلورت صورة سلبية عن الإسلام ونبيه (ﷺ) في مرحلة سابقة عن طريق نقطتي التماس المباشرتين مع الشرق العربي الإسلامي، أعني الأندلس وبيزنطة.

وقد كان لكل من المصادر الإسبانية والبيزنطية تأثير كبير في تكوين صورة مشوهة عن الإسلام ونبيه (ﷺ) في الوعي الغربي.

(أ) المصادر الإسبانية:

وهي تلك الكتابات التي كتبها المسيحيون الإسبان عن الإسلام ونبيه (ﷺ).

وتحتل كتابات كل من أولوجيوس وباول ألڤاروس (القرن التاسع الميلادي) أهمية بين هذه الكتابات الإسبانية.

---

[١] بدوي ، دفاع عن محمد (ﷺ) ضد المنتقصين من قدره ، ص ٧.

[٢] معدي ، ص ٣٦.

[٣] زقزوق ، الإسلام في تصورات الغرب ، ص ١١٧. [بفانموللر]

ويرى "سوذرن"[١] أنه على الرغم من الأهمية التي ينظر بها إلى كتابات كل منهما، إلا أن معلوماتهما عن نبي الإسلام محمد (ﷺ) في ذلك الوقت، لا تزيد عن كونها مجرد أقاصيص وردت في سيرة شعبية إسبانية مصطنعة [وهي المقالة الإسبانية سالفة الذكر]، وقد تأسست هذه السيرة الشعبية على تصورات بيزنطية تذكر أن النبي توفي عام ٦٦٦م[٢].

وتزعم تلك "المقالة الإسبانية" أن النبي محمدا (ﷺ) كان "كاذبا ومبتدعا وشهوانيا"[٣]، وأنه دعا العرب المتوحشين إلى أن يتخلوا عن وثنيتهم ويعبدوا إلها ماديا في السماء كروي الشكل، وأن إبليس ظهر لمحمد (ﷺ) مدعيا أنه جبريل (عليه السلام)، وأخبره أن الرب أرسله ليبشر العرب بما كان قد سمعه في مدارس المسيحيين ويدعوهم إلى عبادة ذلك الإله المادي في السماء وأن ينبذوا عبادة الأوثان، وتزعم هذه المقالة أيضا أنه (ﷺ) عندما مات تعفنت جثته فقامت الكلاب والخنازير بالتهام "الجثة العفنة"، على حد زعم كاتب تلك المقالة[٤].

والإشارة إلى "مدارس المسيحيين" الواردة في هذه المقالة هي إشارة إلى الرافد المسيحي الذي استقى منه محمد (ﷺ) معارفه، في زعم كاتب المقالة.

ويبدو أن كاتب المقالة لم يكن على دراية بطبيعة البيئة العربية زمن محمد (ﷺ)، فلم تكن ثمة مدارس للمسيحين في منطقة الحجاز، كما لم تكن الخنازير من بين الحيوانات المنتشرة في هذه البيئة.

---

[١] ص ٦٢.

[٢] التاريخ الصحيح لوفاة النبي (ﷺ) هو ٦٣٢م، وليس ٦٦٦م.

وهذا الخلط في تاريخ وفاة النبي (ﷺ) كان كثيرا بين كتاب ومؤرخي تلك الفترة ، فهذا "ديونسيوس" بطريرك أنطاكية الذي عاش في القرن التاسع الميلادي يؤرخ لوفاة النبي (ﷺ) سنة (٦٢٦م)، وهو يعتقد أيضا أن مدة خلافة أبي بكر (رضي الله عنه) كانت خمس سنوات. انظر: التلمحري (ديونسيوس) ، تاريخ الأزمان ، ترجمة شادية توفيق حافظ ، المركز القومي للترجمة ، القاهرة ، ط ٢٠٠٨م ، ص ٢٣

[٣] راجع: ص ٣٧ من هذه الدراسة.

[٤] معدي ، ص ٢٥.

وعندما يصف مؤلف المقالة دعوة الإسلام بأنها دعوة لعبادة إله مادي كروي الشكل في السماء، فهو لم تكن له أية دراية بنظرة الإسلام التنزيهية للإله، التي تقوم على أساس التنزيه عن التجسيد والتشبيه.

وقد تبلورت صورة مشوهة عن الإسلام ونبيه (ﷺ) بين المسيحيين الإسبان، على الرغم من وجود هؤلاء في وسط مجتمع عربي إسلامي، بيد أن هذه الصورة المشوهة لم تتبلور بهذا الشكل بسبب قلة المعلومات المتوفرة عن الإسلام ونبيه (ﷺ) داخل هذا المجتمع، وإنما يرجع السبب في ذلك إلى أن المسئولين عن تكوين هذه الصورة لم يكونوا يريدون أن يعرفوا شيئا عن الإسلام من المصادر العربية الإسلامية؛ نظرا لحالة العداء الشديد التي نظروا بها إلى العرب المسلمين الذين رأى فيهم هؤلاء الإسبان أنهم محتلون لوطنهم ومغتصبون لأرضهم ومضلون لبني جلدتهم من الإسبان.

ومن ذلك لجوء "أولوجيوس" إلى بعض النصوص اللاتينية التي جلبها معه من زيارته لمدينة "تاڤارا"[١] عام ٨٤٨م لمعرفة شيء ما عن الإسلام[٢].

ويعترف "أولوجيوس" صراحة أنه لم يبذل أية محاولة لتحقيق المعلومات التي وصلته عن طريق هذا المخطوط اللاتيني الذي وقع في يده بالمصادفة، رغم وجودة في بيئة إسلامية زاخرة بالمصادر الأصلية عن الإسلام ونبيه (ﷺ)[٣].

(ب) المصادر البيزنطية:

وهي تلك الكتابات التي كتبها البيزنطيون كرد فعل عدائي؛ ردا على الهجوم الإسلامي على الإمبراطورية البيزنطية، وتقويض سلطانها في الشام وشمال أفريقيا، بل في عقر دار البيزنطيين أنفسهم.

---

[١] "تاڤارا": مدينة تقع في شمال "إسبانيا"، إلى الشرق من إقليم "الباسك"، على الحدود مع "فرنسا".

[٢] سوذرن ، ص ٦٣.

[٣] الفيومي (محمد إبراهيم) ، الاستشراق رسالة استعمار ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، ط ١٩٩٣م ، ص ٣٦٥.

ومن أهمها كتابات كل من "ثيوفانس" البيزنطي، و"تيقتاس" البيزنطي.

وترجع أقدم التقارير التاريخية الأوربية عن نشأة الإسلام إلى "ثيوفانس" البيزنطي (٧٥٨ – ٨١٥م)، وإلى هذا التقرير ترجع غالبية الأساطير التي قيلت عن محمد (ﷺ) في العصر الوسيط[١].

وهناك من يرى أن "أسطورة محمد" كما ظهرت في أوربا إنما ترجع في الأصل إلى "ثيوفانس" البيزنطي[٢].

ولا يبين "ثيوفانس" في كتابه مراجعه التي اتخذ منها معلوماته عن الإسلام[٣].

ويرى "ثيوفانس" أن محمدا (ﷺ) اختلط في فلسطين باليهود والمسيحيين، وبواسطتهم حصل على بعض الكتب المنزلة، وأنه كان "مصابا بمرض عصبي"[٤].

ويرى "ثيوفانس" أيضا أن محمدا (ﷺ) "زنديق"، وأنه آريوس جديد أسوأ من آريوس الأول[٥].

أما "تيقتاس" البيزنطي (القرن التاسع الميلادي)، فقد ألف كتابا أطلق عليه "دحض لكتاب محمد المزوَّر"، ويبدو أن "تيقتاس" لم يكن متضلعا في اللغة العربية، لكنه يزعم أنه اطلع على القرآن، وهو يزعم في كتابه أن القرآن يصور الله (ﷻ) على شكل كروي أو على شكل مطرقة معدنية في السماء، وأن محمدا (ﷺ) قاد المسلمين ليعبدوا وثنا في "مكة" مصنوعا على غرار "أفروديت"، وأنه جعل الشيطان ربا للخلق، وهو يؤكد في كتابه أن دين محمد (ﷺ) دين وثني وأن أتباعه مجرد جماعة من الوثنيين، وأكثر في كتابه

---

[١] زقزوق ، الإسلام في تصورات الغرب ، ص ١١٨. [بفانموللر]

[٢] بدوي ، موسوعة المستشرقين ، ص ٢٤٣.

[٣] الفيومي ، ص ٣٦٢.

[٤] المرجع السابق ، ص ٣٦٣ – ٣٦٤.

[٥] زقزوق ، الإسلام في تصورات الغرب ، ص ١٢١. [بفانموللر]

من سب النبي (ﷺ)، ونسب إليه تأليف القرآن وشحنه بالأساطير، وعقد بعض المقارنات بين بعض نصوص القرآن ونصوص العهدين القديم والجديد، واختتم كتابه بالتأكيد على أن الرب الذي يعبده محمد (ﷺ) هو الشيطان ذاته[١].

ويبدو أن ثمة اتفاقا بين رؤية "تيقتاس" ورؤية سلفه "يوحنا" الدمشقي، فقد أشار "يوحنا" قبل ذلك إلى وجود صنم في مكة على شكل "أفروديت" يعبده العرب الوثنيون، كما أشار إلى اطلاع محمد (ﷺ) على العهدين القديم والجديد[٢]. ولذلك فليس من المستبعد أن يكون "تيقتاس" قد استقى بعض معلوماته من كتابات "يوحنا".

ومن اللافت للنظر أيضا، اتفاق رؤية "تيقتاس" مع رؤية المصادر الإسبانية في العديد من الجوانب ومنها: (الإله الكروي الشكل – وثنية المسلمين – العلاقة بين محمد والشيطان).

هذا الاتفاق يشير إلى احتمالية أخذ "تيقتاس" بعض معلوماته عن الإسلام من تلك المصادر الإسبانية أيضا.

ويبدو أن معظم هذه الكتابات الجدلية المسيحية تتفق على أن محمدا (ﷺ) اطلع على العهدين القديم والجديد، وأنه تلقى علوم الكتب المقدسة على أيدي أحد الرهبان، لكن ليس ثمة اتفاق على اسم هذا الراهب أو مذهبه العقدي.

وفي فترة لاحقة على هذه الكتابات حدث خلط بين شخصية محمد (ﷺ) وبين شخصية هذا الراهب المفترض؛ إذ رأى اللاهوتيون في القرن الرابع عشر الميلادي في أوربا، أن محمدا (ﷺ) نفسه كان كاردينالا طمح لمنصب البابوية، وعندما فشل في الوصول إلى المنصب تحول إلى عدو شرس للمسيحية كلها[٣].

---

١ معدي ، ص ٢٣ – ٢٤.

٢ Chase , p 153.

٣ سوذرن ، ص ١٢٠ – ١٢١ ؛ زقزوق ، الإسلام في تصورات الغرب ، ص ١٢٢ ، ١٢٦. [يفانمولار]

فهناك من زعم أن النبي محمدا (ﷺ) وُلِدَ في بولونيا بإيطاليا، وأنه ينتمي إلى أسرة كولونا التي كانت تعادي البابا في روما، وأن الإسلام نشأ عن الأحقاد العنيفة بين الكاردينالات، وطمع بعض هؤلاء الكاردينالات في منصب البابوية[١].

وهناك من أطلق على محمد (ﷺ) اسم "نيقولا"، وزعم أنه كان أحد شمامسة الكنيسة الرومانية، وأنه ألم بعلوم كثيرة وكان عارفا بكل اللغات القديمة، وعندما أوشك البابا على الموت، أرسل الكرادلة إلى نيقولا [المقصود: محمد ﷺ] يطلبون منه المجيء إلى روما للتعيين في منصب البابا، وعند حضوره للمثول أمام البابا لم يبد الاحترام والتبجيل الواجب نحوه، فغضب عليه البابا وحدد إقامته، لكن نيقولا غضب وارتحل إلى جزيرة العرب، وصمم على الانتقام من البابا والكنيسة بتأليف عقيدة جديدة يبشر بها بين العرب لتدمير المسيحية[٢].

وهناك من زعم أن "نيقولا" هو شخص آخر غير محمد (ﷺ)، وأن هناك تحالفا ثلاثيا ضم محمد (ﷺ) ونيقولا وسرجيوس، وكان محمد (ﷺ) ذا هيبة مما حدا بصاحبيه أن يسمياه "نبي الله"[٣].

ويزعم "جاك دى فتري" (ت ١٢٤٤م) أن محمدا (ﷺ) كان قسيسا يدعى "سوسيو"، وقد أدانه بابا روما بتهمة الهرطقة، فنفي إلى الجزيرة العربية، وهناك انتقم من أعدائه بادعائه النبوة، وأنه استقى تعاليمه من العهدين القديم والجديد، وأضاف إليهما ما وسوس له به الشيطان[٤].

---

[١] بدوي (عبد الرحمن) ، موسوعة المستشرقين ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ط ثالثة ١٩٩٣م ، ص ٢٤٤.

[٢] بدوي ، دفاع عن محمد (ﷺ) ضد المنتقصين من قدره ، ص ١٢.

[٣] المرجع السابق ، ص ١٥.

[٤] المرجع السابق ، ص ٧.

ويزعم "جلبرت نوجنت" (١٠٥٢ – ١١٢٤م) في أسطورته عن النبي محمد (ﷺ) أن بطريرك الإسكندرية حين مات أراد أحد الرهبان أن يخلفه في وظيفته، لكنه طرد من الكنيسة، فوسوس له الشيطان أن يعلن أنه المسيح، ولقد قام هذا الراهب واسمه "ماثوموس" [تحريف للاسم محمد] بالزواج من أرملة ثرية اسمها "خديجة" [رضي الله عنها]، وأشاع أنه نبي أمام حشد من الناس، ولقد جاء "ماثوموس" ببقرة ووضع بين قرنيها كتابا صغيرا، وأخفى هذه البقرة عن أتباعه، وفي أحد الأيام أخرج هذه البقرة أمام العامة، وجعلهم يقرءون الكتاب الصغير الذي كان بين قرنيها، الذي وجدوا فيه جُملا تُحِلُّ لهم كل أنواع الفساد الأخلاقي، وتبيح لهم أكل اللحوم المحرمة[١].

إن معظم هذه الكتابات الجدلية عن الإسلام ونبيه (ﷺ)، التي غزت أوربا خلال العصر الوسيط، لم يكن لها أسانيد تاريخية أو مصادر مكتوبة تعتمد عليها، وإنما كانت تجميعا من الحكايات الشعبية المنتشرة في تلك الفترة.

فهذا "جلبرت نوجنت" – أحد اللاهوتيين الأوربيين الكبار في نهاية القرن الحادي عشر وبداية القرن الثاني عشر الميلاديين، كتب تقريرا موجزا عن سيرة النبي محمد (ﷺ) – ذكر صراحة أنه لم يستطع الاستناد فيما كتب عن النبي (ﷺ) إلى مصادر مكتوبة، وقال إن ما يكتبه هو نتاج الرأي العام السائد، وإنه لا يستطيع أن يحدد مدى الصحة أو الخطأ في أخبار الرأي العام، لكنه يبرر ذلك بقوله: إن الباحث له الحق في أن يتحدث بشكل سلبي عن رجل فاقت سيئاته كل حد معقول[٢].

* * *

---

[١] بدوي ، دفاع عن محمد (ﷺ) ضد المنتقصين من قدره ، ص ٦.

[٢] سوذرن ، ص ٦٨.

٤- نشأة الكتابات الجدلية اليهودية ضد الإسلام ونبيه في العصر الوسيط:

كان الصراع بين الإسلام واليهودية قد بدأ في وقت مبكر من تاريخ الإسلام، منذ أن التقى المسلمون باليهود على أرض يثرب؛ إذ لم يعترف اليهود بنبوة محمد (ﷺ)، وبدأت المواجهة بين الفريقين، وقد تمثلت تلك المواجهة في عدة أشكال، من أهمها:

١- المواجهة العسكرية: التي تمثلت في مجموعة من المعارك بين الفريقين، انتهت بإجلاء اليهود عن يثرب وغيرها من مناطق جزيرة العرب.
٢- المواجهة الفكرية: التي تمثلت في صورة جدل ديني بين الفريقين، فمن جانب كان الإسلام يوجه نقده إلى اليهود وكتبهم، متهما إياهم بتحريفها، ومن الجانب الآخر كان اليهود يلقون بالشبهات التي يحاولون بها تشكيك المسلمين في عقيدتهم ودينهم.

وبعد الفتوحات الإسلامية الكبيرة في كل أرض الجزيرة العربية والشام والعراق ومصر وشمال إفريقيا، أدرك اليهود فشل الخيار العسكري، وبدءوا في تطوير أساليب الهجوم الفكري على الإسلام، واتخذ هذا الهجوم شكلا مباشرا وآخر غير مباشر.

أما الهجوم المباشر فكان عن طريق التهوين من شأن هذا الدين الجديد، وتكذيب عقائده وردها إلى عقائد يهودية، والدخول في جدل ديني مع المسلمين لتشكيكهم في عقيدتهم، وأما الهجوم غير المباشر فقد تمثل في محاولة تشويه هذا الدين من الداخل، فقادوا عملية غزو فكري يهودي للإسلام ومعتقداته، وقد تمخضت هذه العملية عن ظهور ما يسمى بالإسرائيليات في بعض كتب التفسير والحديث وكتب التاريخ الإسلامي؛ فقد

دس اليهود بعض المفاهيم الفكرية والدينية، فضلا عن القصص والروايات اليهودية في البناء الفكري والعقدي والتشريعي الإسلامي[١].

وذلك لا يعني براءة مفسري القرآن من السعي وراء هذه الإسرائيليات؛ بحثا عن بعض التفاصيل المسكوت عنها في القرآن.

وقد نجحت شخصيات يهودية في التغلغل في الفكر الإسلامي عن طريق آخر غير طريق الإسرائيليات، ألا وهو العمل على إنشاء فكر إسلامي مضاد للفكر الإسلامي الصحيح، وقد تمخضت هذه العملية عن ظهور بعض الفرق الإسلامية الضالة التي سمحت لأفكار يهودية بالدخول إلى جوانب من الفكر الإسلامي، فدخلت عناصر فكرية إسرائيلية إلى فرق التشيع والتصوف والفرق الباطنية والشعوبية، ساعدت على إضعاف وحدة الفكر الإسلامي، وتفريق كلمة المسلمين، ودخولهم في صراعات دينية وفكرية، استمرت فترة طويلة من الزمن[٢].

وقد عاش اليهود في ظل الدولة الإسلامية حياة آمنة، محاولين تجنب الصدام مع المسلمين في أغلب الأحيان، وقد أظهرت معظم الطوائف اليهودية الاحترام الظاهر للدين الإسلامي ونبيه (ﷺ)، في محاولة منهم للحصول على مميزات اجتماعية خاصة.

ومن أمثلة ذلك: سعت الطائفة اليهودية في اليمن للحصول على بعض المميزات داخل المجتمع الإسلامي، فزورت وثيقة نسبتها إلى العصر النبوي، أطلق عليها "كتاب ذمة النبي"[٣].

---

[١] حسن (محمد خليفة) ، المدرسة اليهودية في الاستشراق ، بحث منشور في مجلة رسالة المشرق ، مركز الدراسات الشرقية ، القاهرة ، الأعداد من الأول إلى الرابع ، ٢٠٠٣م ، ص ٣١ – ٣٢.

[٢] حسن ، ص ٣٢.

[٣] أورد "جويتين" هذا الكتاب (كتاب ذمة النبي) في الفصل السادس عشر من كتابه "התימנים" (اليمنيون)، انظر: גויטיין (שלמה דב) , התימנים , בעריכת מנחם בן־ששון , הוצאת מכון בן־צבי לחקר קהילות ישראל במזרח , ירושלים , 1983 , עמ׳ 289 – 293.

وتزعم هذه الوثيقة المزعومة أن النبي (ﷺ) كتب هذا العهد لليهود بسبب مساندتهم له في حربه ضد الكفار، فكافأهم بأن أعطاهم الأمان لهم ولأجيالهم في قراهم وحصونهم، وأمنهم في الأسواق وفي المدن وفي كل بلاد المسلمين، ورفع عنهم العشور، وأنهم لا يمنعون من دخول المساجد والمشاهد والمدارس، وليس عليهم تأدية الجزية إلا على ركاب الخيل[١]، وفي الكتاب تأكيد من النبي (ﷺ) على أن بني إسرائيل أهل ذمة وأنه ليس لأحد أن يظلمهم أو يؤذيهم، وكذلك ليس لأحد أن يجبرهم على أن يخرجوا من دينهم إلى دين آخر، وأن النبي (ﷺ) أمر بالسماح لهم بالحفاظ على سبتهم وقراءة التوراة، وأنهم لا يمنعون من الصلاة في كنيسهم ولا من شرب المسكرات في بيوتهم[٢].

وتزخر الوثيقة المزعومة بالعديد من الأخطاء في أسماء الأعلام، ومنها على سبيل المثال لا الحصر: "صفية بنت الحاوي بن الخطاب" إشارة إلى السيدة "صفية بنت حيي بن أخطب"[٣]، و"عبد الرحمن بن العفاف" إشارة إلى "عبد الرحمن بن عوف" على ما يبدو، و"أبو بذر النفار" إشارة إلى "أبي ذر الغفاري" على ما يبدو، وغيرها من الأخطاء في أسماء الصحابة (رضي الله عنهم) التي تزعم الوثيقة أنهم كانوا شهودا عليها، وكذلك أخطاء متعددة في سلسلة نسب النبي (ﷺ)[٤].

ومما يلفت النظر في هذه الوثيقة المزعومة عبارات الثناء على النبي (ﷺ)، ومن ذلك: "وعندما أوشك الأعداء أن ينتصروا على النبي محمد (عليه السلام)[٥] أقبل بنو إسرائيل، هم ومشايخهم وحاربوا بين يدي النبي محمد

---

[١] الفقرات ١٣ – ١٧، انظر: גוויטיין , התימנים , עמ׳ 290 – 291.

[٢] الفقرات ٢١ – ٢٤، انظر: שם , עמ׳ 291 – 292.

[٣] الفقرة الأولى، انظر: שם , עמ׳ 289.

[٤] الفقرتان ٢٩ ، ٣٠، انظر: שם , עמ׳ 293.

[٥] هكذا ورد التعبير في الوثيقة (عليه السلام) وليس (صلى الله عليه وسلم).

[ﷺ] وقالوا يا نبي الله نفديك بأرواحنا وأموالنا وليس لنا سبت إلا بسعادتك"[١].

وتبدو ملامح التزوير بوضوح على هذه الوثيقة، وأنه ما قصد منها إلا الحصول على بعض المميزات الخاصة للطائفة اليهودية داخل المجتمع الإسلامي. لكن اللافت للنظر هنا هو مدى تشوش معلومات مزورها، على الرغم من انتماء هذه الوثيقة إلى بيئة عربية إسلامية.

ويبدو أنه كان ثمة إعراض من جانب غير المسلمين من اليهود والمسيحيين عن المعرفة الصحيحة بالإسلام من المصادر العربية الإسلامية ذاتها، واحتراز من مطالعة تلك المصادر، وقد مر بنا ذلك عند الحديث عن المصادر الإسبانية[٢].

والنسخة التي وصلت من هذه الوثيقة مكتوبة بالعربية اليهودية. ويرى "شلومو دوڤ جويتين" (שלמה דב גויטיין)[٣] أن هذه الوثيقة (كتاب ذمة النبي) قد أخذت صورتها هذه في اليمن ليس قبل نهاية العصر الوسيط، وأن هذا الكتاب يتشابه مع قطعة من قطع الجنيزا التي نشرها "هيرشفيلد" (Hirschfeld) عام ١٩٠٢م.

نموذج آخر لهذا الاتجاه اليهودي المحافظ في علاقته مع المسلمين داخل المجتمع الإسلامي يتمثل في كتاب "الخوزري" المسمى "الحجة والدليل في نصر الدين الذليل" لـ "يهودا اللاوي" (١٠٧٥ – ١١٤١م).

على الرغم من أن هذا الكتاب يعد كتابا في الجدل الديني ضد الأديان الأخرى، قصد به مؤلفه الدفاع عن اليهودية التقليدية ضد المهاجمين لها من

---

[١] الفقرة السابعة، انظر: גויטיין , התימנים , עמ׳ 290.

[٢] راجع: ص ٥٢ من هذه الدراسة.

[٣] התימנים , עמ׳ 294 ، 299.

الخارج والداخل[١]، إلا أن مؤلفه لم يتعرض للإسلام بالنقد المباشر، وجعل جل همه إظهار مزايا اليهودية على المسيحية والإسلام، بل على مذاهب الفلاسفة أيضا[٢].

وعلى النقيض من هذا الاتجاه تماما نجد "سعد بن كمونة" اليهودي، يؤلف كتابا في القرن السابع الهجري، بعنوان "تنقيح الأبحاث للملل الثلاث".

وفي هذا الكتاب يدافع "ابن كمونة" عن اليهودية دفاعا شرسا، ويحاول تفنيد المآخذ الموجهة إليها، ولا عجب في ذلك، فهو يهودي مخلص ليهوديته، لكن العجيب أن يدافع عن المسيحية، لدرجة أنه يدافع عن كون المسيح له طبيعتان لاهوتية وناسوتية، وعن كون الثلاثة أقانيم واحدا[٣].

وفي تناول "ابن كمونة" للإسلام حمل حملة شديدة على عقائده، وحاول أن يثير الشكوك في نبوة محمد (ﷺ)، في حين أقر بنبوة كل من موسى وعيسى (عليهما السلام)[٤].

ومما يسترعي الانتباه، أن "ابن كمونة" يذكر بعض العبارات التي أرى لها أصداء في كتابات بعض المستشرقين، ومنها – على سبيل المثال– قوله في أسئلته التي يلقيها في جدله على لسان المتكلمة: "يحتمل أن محمدا [ﷺ] طالع في كتب من تقدمه، أو سمعها فانتخب أجودها، وضم البعض إلى البعض، أو أنه كان يترصد كلمات الناس ويستقريها، فما وجده من كلمة رائقة أو نكتة فائقة نقحه وجمعه ورتبه قرآنا"[٥].

---

[١] الهواري (محمد) ، الجدل اليهودي ضد المسيحية في ضوء الجنيزا القاهرية ، دار الزهراء للنشر ، القاهرة ، ١٩٩٤م ، ص ١٢.

[٢] הלוי (יהודה) , אלחגה ואלדליל פי נצר אלדין אלדליל , ליפזג , 1887 , עמ׳ 2 - 15.

[٣] ابن كمونة (سعد بن منصور) ، تنقيح الأبحاث للملل الثلاث اليهودية والمسيحية والإسلام ، تعليق عبد العظيم المطعني ، دار الأنصار ، القاهرة ، ط ثانية ١٩٥٠م ، ص ٣. [المعلق]

[٤] المرجع السابق ، ص ٤. [المعلق]

[٥] المرجع السابق ، ص ٧٠.

ويرى المستشرق "جولدتسيهر"[١] أن محمدا (ﷺ) قد تلقى أفكارا متنوعة، أخذها من كل ما طرق سمعه عَرَضا خلال لقاءاته العشوائية داخل دائرة تعاملاته. وأنه استخدم كل ذلك استخداما غير منظم تماما.

ويقول المستشرق "شمعون بيرنفيلد" (שמעון בירנפילד)[٢] عن محمد (ﷺ): "كان إذا ما سمع قولا من فم إنسان، بدا له كإبداع عظيم، أسرع فأدمجه في إحدى سوره، وخطب به وسط الجموع".

وعند المقارنة بين هذه الآراء نجد أنها تتفق تقريبا في فكرتها الأساسية التي تشير إلى قيام محمد (ﷺ) بتأليف بعض أجزاء من القرآن اعتمادا على ما سمعه من الأقوال في محيطه البيئي وفي نطاق دائرة تعاملاته.

ولا يعني ذلك بالضرورة القول بتأكيد اطلاع "جولدتسيهر" أو "بيرنفيلد" على كتاب "ابن كمونة"، لكننا نشير بذلك إلى امتداد الخط الفكري اليهودي من العصر الوسيط إلى العصر الحديث، وإلى تبني المفكرين والكتاب اليهود لرؤى مشتركة معادية في توجهاتها لفكرة صحة نبوة محمد (ﷺ).

* * *

على أية حال، يبدو أنه لم يكن ثمة هجوم فكري واسع النطاق من اليهود على الإسلام في العصر الوسيط، مقارنة بهذا الهجوم العنيف من المسيحيين على الإسلام في ذلك العصر.

* * *

---

١ עמ׳ 19 ؛ p 14 ؛ ص ٢٥.

٢ מחמד – תולדות חייו וראשית לדת דת האיסלם , הוצאת תושיה , ווארשא , 1898 , עמ׳ 88.

٥- روافد الإسلام من خلال الكتابات الجدلية في العصر الوسيط:

لو تتبعنا الكتابات الجدلية التي كتبت عن النبي محمد (ﷺ) منذ نشأتها في الشرق إلى أن اجتاحت أوربا خلال العصر الوسيط لوجدناها تحصر الروافد التي أسهمت في تكوين الثقافة الدينية لنبي الإسلام (ﷺ) في مصدرين أساسيين: الشيطان، والكتابات المقدسة.

المصدر الأول: الشيطان

تشير بعض الكتابات إلى أن الشيطان (إبليس) كان أحد المصادر التي تلقى منها نبي الإسلام (ﷺ) معارفه، ومن هذه الكتابات: "المقالة الإسبانية" التي يزعم كاتبها أن إبليس ظهر لمحمد (ﷺ) مدعيا أنه جبريل (عليه السلام)[١].

ومن ذلك أيضا ما قاله "أولوجيوس" من أن الذي تراءى لمحمد (ﷺ) في هيئة ملاك إنما هو الشيطان[٢]، وكذلك ما تم ذكره آنفا من أن "جاك دي فتري" قال: إن محمدا (ﷺ) استقى تعاليمه من العهدين القديم والجديد، وأضاف إليهما ما وسوس له به الشيطان[٣]، ويضاف إلى ذلك أيضا ما قاله "مارتين بولونكو" (ت ١٢٧٤م): من أن الشيطان نقل إلى محمد [ﷺ] شريعته بمساعدة الراهب الزنديق "سرجيوس"[٤]، كما اعتبر "ريكولدو دي مونت كروس" (١٢٤٣- ١٣٢٠م) أن الإسلام مجرد "خدعة شيطانية" ابتدعها الشيطان كي يمهد الطريق لمجيء المسيح الدجال، وذلك حين شعر الشيطان بعدم قدرته على إيقاف انتشار المسيحية[٥].

---

١ معدي ، ص ٢٥.

٢ المرجع السابق ، ص ٢٦.

٣ بدوي ، دفاع عن محمد (ﷺ) ضد المنتقصين من قدره ، ص ٧.

٤ المرجع السابق ، ص ٧.

٥ معدي ، ص ٤٠.

واللافت للنظر في هذا الصدد أن أصحاب هذه الآراء – أو بالأحرى هذه التخمينات – يتبنون تصورا " فوق طبعي"، وهم لا يعطون لنا مبررا معقولا للتمييز بين الملاك "جبريل" (عليه السلام) والشيطان "إبليس"، الأمر لا يمكن تفسيره إلا في ظل الصورة المشوهة لنبي الإسلام (ﷺ) التي رسخت في تصور هؤلاء، فما رسخ في وجدانهم عن محمد (ﷺ) أنه رجل "شرير ونبي زائف ومحتال"، وغيرها من الأوصاف السلبية التي تمت الإشارة إليها فيما سبق[١]، وبالتالي لا يمكنهم تصور أن يكون جبريل (عليه السلام) هو ملك الوحي الذي نقل آيات القرآن من الله (عز وجل) إلى محمد (ﷺ)، الأمر – بالنسبة لهؤلاء الجداليين – متعلق بالمعتقدات والقناعات الشخصية في المقام الأول، ولا يستند إلى منطق معقول.

المصدر الثاني: الكتب المقدسة

وفقا لتصور أصحاب بعض الكتابات الجدلية في العصر الوسيط، فإن محمدا (ﷺ) هو مجرد "نبي زائف"، وبالتالي لا يمكن لهؤلاء تفسير التشابه بين آيات القرآن وما ورد في كتبهم المقدسة من قصص وتشريعات إلا في إطار النقل والاقتباس؛ إذ تشير بعض هذه الكتابات إلى أن الكتب المقدسة اليهودية والمسيحية تمثل مصدرا رئيسا استقى منه محمد (ﷺ) معارفه وثقافته الدينية، لكن ثمة اختلافا بين هذه الكتابات وتناقضا في تحديد كيفية حدوث هذا الاستقاء المفترض، وذلك على النحو التالي:

١- منهم من أرجع معرفة محمد (ﷺ) بهذه الكتب المقدسة إلى سفره إلى بلاد الشام واختلاطه باليهود والمسيحيين هناك، وحصوله على بعض الكتب المنزلة منهم، ومن أصحاب هذا الرأي "ثيوفانس" البيزنطي[٢].

---

[١] راجع: ص ٣٥ – ٣٨ من هذه الدراسة.

[٢] الفيومي ، ص ٣٦٣ – ٣٦٤.

٢- منهم من أرجع استقاء محمد (ﷺ) بعض معارفه إلى سماعه لبعض المواعظ في مدارس المسيحيين، ويرجع هذا التصور إلى "المقالة الإسبانية"[١].

٣- منهم من أرجع هذه المعرفة إلى تتلمذ محمد (ﷺ) على أيدي أحد الرهبان الفارين إلى جزيرة العرب، على خلاف بين أصحاب هذا الرأي في اسم هذا الراهب فمنهم من دعاه "بحيرا"، ومن دعاه "سرجيوس"، ومن دعاه "نسطورس"، ومن اكتفى بوصفه أنه راهب آريوسي، ومن أصحاب هذا الرأي "يوحنا" الدمشقي، و"يحيى بن عدي" الذي تنسب إليه "رسالة الكندي"، و"بطرس المبجل"، و"مارتين بولونكو".

٤- منهم من اعتبر محمدا (ﷺ) نفسه راهبا عالما بالكتاب المقدس، ومن أصحاب هذا الرأي "جلبرت نوجنت" الذي زعم أنه (ﷺ) كان راهبا من كنيسة الإسكندرية اسمه "ماثوموس"، و"جاك دي ڤتري" الذي زعم أنه (ﷺ) كان راهبا من كنيسة روما اسمه "سوسيو" أدانه بابا روما بتهمة الهرطقة، ونفاه إلى جزيرة العرب.

وإذا كان "يوحنا" الدمشقي، ومؤلف "رسالة الكندي" قد انتقلا عن المكيين خطوة إلى الأمام في اتجاه إيجاد تفسير منطقي للمصدر الذي استقى منه محمد (ﷺ) معارفه، بحديثهما عن الراهب المعلم لا الغلام المعلم، نجد بعض الكتابات الجدلية الأوربية خلال العصر الوسيط قد تراجعت خطوات إلى الخلف بتبنيها هذا التصور فوق الطبعي المتمثل في "الشيطان"، في حين انتقل بعضها خطوات للأمام عند التركيز على فكرة الرحلات التجارية التي نُسب إلى محمد (ﷺ) القيام بها، وذلك في محاولة لتفسير التنوع المعرفي الموجود في القرآن الكريم.

* * *

---

[١] معدي ، ص ٢٥.

٦- دعوى الروافد الثقافية لنبي الإسلام (ﷺ) ميراث استشراقي من التراث الجدلي ضد الإسلام:

كان للحروب الصليبية أبلغ الأثر في إذكاء نار العداوة بين المسيحيين والمسلمين وتأجيجها، ما أدى إلى اندفاع بعض الجدليين في هجومهم على الإسلام ونبيه (ﷺ)، فأرسلوا الأقوال والتهم جزافا، تلك الأقوال التي يمكن وصف بعضها بالفجاجة، وتلك التهم التي يمكن وصف بعضها بالسذاجة.

لقد تبنى المستشرقون هذا التراث الجدلي العدائي ضد الإسلام ونبيه (ﷺ)، وعمل بعض المستشرقين على تخليص هذا التراث من الكثير من جوانب الفجاجة والسذاجة التي ألمت به خلال العصر الوسيط، حتى يبدو أكثر قبولا وأكثر منطقية وأكثر إقناعا لدى الجماهير العريضة من الأوربيين الذين بدأ بعضهم في اكتشاف زيف العديد من جوانب هذا التراث الجدلي، وبدأ المستشرقون في إنتاج الاتهامات القديمة ذاتها إنتاجا جديدا، ملبسين إياها ثوب العلمية والموضوعية، ثم انتقلوا بعدد من هذه الموضوعات إلى المنصات الأكاديمية، وكان من أهم تلك الموضوعات موضوع "مصادر الإسلام" الذي تمثل دعوى الروافد الثقافية لنبي الإسلام (ﷺ) جزءا مهما منه.

* * *

(أ) الإشارات الأولى عن الروافد الثقافية المفترضة لنبي الإسلام (ﷺ):

كانت اتهامات المكيين لمحمد (ﷺ) قد مثلت الإشارة الأولى بشأن مصادر المعرفة لدى محمد (ﷺ)، فقد اتهمه المكيون بأنه "مُعَلَّم" تلقى العلم على يد بشر، وأن القرآن ليس إلا "أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه" وأنه "إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون"، ثم كانت ادعاءات "يوحنا" الدمشقي بأن

محمدا (ﷺ) اطلع على العهدين القديم والجديد خطوة أخرى بشأن الروافد التي يفترض أنها أمدت نبي الإسلام (ﷺ) بنصيب من ثقافته الدينية، ويُفهم من إشارة "يوحنا" أن نبي الإسلام (ﷺ) استقى معارفه من رافدين أساسيين:

١- اليهودية، وهي تتمثل في أسفار العهد القديم.

٢- المسيحية، وهي تتمثل في نصوص العهد الجديد.

ثم أضاف مؤلف "رسالة الكندي" رافدا ثالثا، بإشارته إلى أن شعائر الحج تعتبر من أعمال الوثنية.

واستمر تداول هذه الإشارات وأمثالها في الكتابات الجدلية خلال العصر الوسيط، لكنها ظلت مجرد دعوى واتهام، ولم تجد من يحاول البرهنة عليها بصورة عملية إلا في كتابات المستشرقين، بدءا من القرن السابع عشر.

* * *

(ب) الكتابات الاستشراقية الأولى عن الروافد الثقافية المفترضة لنبي الإسلام (ﷺ):

في عام ١٦٢٥م أصدر "ميشيل بودييه" (Michel Baudier) كتابا عن حياة محمد (ﷺ)، وفي هذا الكتاب وصف "بودييه" بإسهاب المواضع القرآنية التي أفسد فيها "النبي الزائف" – بزعمه – الديانة المسيحية، ولكي يجعل "بودييه" التضليل واضحا بقدر الإمكان أمام القراء، فإنه يقتبس آيات من القرآن بجانب نصوص من الكتاب المقدس؛ للإيحاء بنقل محمد (ﷺ) واقتباسه من نصوصه[١].

وفي عام ١٦٩٩م ألف المستشرق "همفري بريدو" (Humphrey Prideaux) كتابا في سيرة النبي محمد (ﷺ) عنوانه: "حياة محمد المخادع"، ويطفح كتاب "بريدو" بالأساطير والأكاذيب، ومنها أن الشاعر كعب بن زهير

---

[١] زقزوق ، الإسلام في تصورات الغرب ، ص ١٣٤. [يفانموللر]

كان يهوديا، وأنه هو الذي ساعد محمدا (ﷺ) في تأليف القرآن، كما يذكر أن محمدا (ﷺ) كان "جاهلا" وأنه استفاد من معلومات اليهودي عبد الله بن سلام، كما يزعم أن "ابن سلام" هذا هو نفسه سلمان الفارسي[١].

ورغم ما يمكن أن يوجه من انتقادات حادة لكتاب "بريدو" إلا أن هناك سمة مهمة تتجلى في هذا الكتاب، وهي البحث في المقتبس من الأدب اليهودي والمسيحي، وهي التي فتحت الطريق أمام محاولات من نفس النوع في القرن التاسع عشر، وبذلك يعد "بريدو" في هذا المجال رائدا لكل من "جايجر" و"هيرشفيلد" و"جولدتسيهر"[٢].

وفي هذا المقام لا نستطيع أن نغفل دور ملاحظات مترجمي القرآن الكريم في هذا الإطار، فلدينا اعتراف من المستشرق "أبراهام جايجر" (Abraham Geiger)[٣] بأن ملاحظاته الأولى عن العلاقة بين الإسلام واليهودية قد جمعها من ملاحظات وتعليقات مترجمي معاني القرآن الكريم، أمثال "ڤاهل" (Wahl) و"ماراتشي" (Marracci).

وكان "جايجر" قد تبوأ مقعد الريادة في مجال العلاقة بين الإسلام واليهودية بكتابه "ماذا أخذ محمد من اليهودية"[٤]

* * *

---

١ بدوي ، دفاع عن محمد (ﷺ) ضد المنتقصين من قدره ، ص ٣٦ – ٣٧.

٢ المرجع السابق ، ص ٣٨.

٣ Judaism And Islam , The M. D. C. S. P. C. K. Press , 1898 , p VII.

٤ نشر هذا الكتاب للمرة الأولى بالألمانية عام ١٨٣٣م ، تحت عنوان:

" Was hat Mohammed aus dem Judenthume aufgenormmen "

ثم نشرت الترجمة الإنجليزية لهذا الكتاب عام ١٨٩٨م ، تحت عنوان: " Judaism And Islam "

ويشير "جايجر" في مقدمة كتابه إلى أنه كتب هذا الكتاب للدخول به في مسابقة أعلنتها الكلية الفلسفية بجامعة بون عام ١٨٣٢م حول موضوع " مصادر القرآن أو القوانين المحمدية التي تعود إلى اليهودية ". (انظر: Geiger , p. V).

وتدلنا تلك الإشارة من جانب "جايجر" على أن الموضوع في حد ذاته لم يفرض نفسه على الباحث بقدر ما كان محاولة للبحث عن أدلة لإثبات نتيجة محددة سلفا من قبل الجهة المنظمة للمسابقة.

(ج) الكتابات الأكاديمية الأولى عن الروافد الثقافية المفترضة لنبي الإسلام (ﷺ):

على الرغم من أن إرهاصات البحث في موضوع الروافد الثقافية لنبي الإسلام (ﷺ) كانت قد بدأت منذ وقت مبكر من تاريخ الإسلام مع كتابات "يوحنا" الدمشقي، وعلى الرغم من الإشارات التي أشار إليها بعض مترجمي القرآن الكريم أمثال "ڤاهل" و"ماراتشي" وبعض المستشرقين أمثال "بودييه" و"بريدو"، إلا أن القرن التاسع عشر الميلادي قد تميز بظهور سلسلة من الكتب الأكاديمية التي تبحث مسألة وجود مصادر يهودية ومسيحية في القرآن، وبداية من هذا القرن أصبح لهذا البحث سمات تبدو علمية، فضلا عن تخصيص منشورات وكتب لهذا الموضوع[١].

وتنقسم الدراسات التي تناولت هذا الموضوع إلى قسمين:

أولا: دراسات ذات نزعة يهودية

ثانيا: دراسات ذات نزعة مسيحية.

ومن أمثلة القسم الأول: الدراسات ذات النزعة اليهودية

١- كتاب "جايجر" (Geiger): "ماذا أخذ محمد من اليهودية" – "بون" عام ١٨٣٣م.

٢- كتابات "هيرشفيلد" (Hirschfeld)، ومنها:

أ) العناصر اليهودية في القرآن – "برلين" عام ١٨٧٨م.

ب) مقالة في شرح القرآن – "ليبزج" عام ١٨٨٦م.

ج) أبحاث جديدة في فهم وتفسير القرآن – "لندن" عام ١٩٠٢م.

٣- كتاب "إسرائيل شابيرو" (Israel Shapiro): "الحكايات التوراتية في أجزاء القرآن" – "برلين" عام ١٩٠٧م.

---

[١] بدوي (عبد الرحمن) ، دفاع عن القرآن ضد منتقديه ، ترجمة كمال جاد الله ، الدار العالمية للكتب والنشر ، القاهرة ، ط ١٩٩٩م ، ص ٢٣.

٤- كتاب "يوسف هوروفتس" (Joseph Horovitz): "بحوث قرآنية" – "برلين" و"ليبزج" عام ١٩٢٦م [١].

٥- كتاب "توري" (Charles Cutler Torrey)[٢]: "الأساس اليهودي للإسلام" – "نيويورك" عام ١٩٣٣م.

٦- كتاب "أبراهام كاتش" (Abraham Katsh)[٣]: " اليهودية في الإسلام" – "نيويورك" عام ١٩٥٤م.

ومن أمثلة القسم الثاني: الدراسات ذات النزعة المسيحية

١- كتاب "تور أندريه" (Tor Andrae): "أصل الإسلام والمسيحية" – "أوبسلو" عام ١٩٢٦م.

٢- كتابات "ريتشارد بيل" (Richard Bell)، ومنها:

أ) أصل الإسلام في بيئته المسيحية – "لندن" عام ١٩٢٦م.

ب) مقدمة في القرآن – "أدنبرج" عام ١٩٥٣م [٤].

ويعد كتاب "جايجر" المسمى "ماذا أخذ محمد من اليهودية" أول محاولة أكاديمية في هذا الاتجاه، فقد فتح هذا الكتاب لدعوى اقتباس محمد (ﷺ) من اليهودية الطريق إلى المنصات الأكاديمية ودراسات أعلام المستشرقين؛ فقد تابعه في هذا التوجه طائفة من المستشرقين، منهم: "هيرشفيلد" و"جولدتسيهر" و"يوسف هوروفتس" و"أبراهام كاتش"[٥].

---

١ الدراسات من (١ – ٤) ، انظر: بدوي ، دفاع عن القرآن ضد منتقديه ، ص ٢٣.

٢ The Jewish Foundation of Islam , Jewish Institute of Religion Press , New York , 1933.

٣ Judaism In Islam , Bloch Publishing Company , New York , 1954.

٤ الدراسات من (١ – ٢) ، انظر: بدوي ، دفاع عن القرآن ضد منتقديه ، ص ٢٣ – ٢٤.

٥ عامري (سامي) ، هل القرآن الكريم مقتبس من كتب اليهود والنصارى ، مبادرة البحث العلمي لمقارنة الأديان ، ط ٢٠١٠م ، ص ٣٧ – ٣٨.

ولم يكتف المستشرقون بالبحث في موضوع الروافد اليهودية والمسيحية للإسلام، بل توسع بعضهم في البحث عن روافد أخرى، وتبرز في هذا الإطار كتابات "وليم كلير تسدال" (William Clair Tisdall).

في عام ١٩٠٠م نشر "تسدال" كتابا بالفارسية بعنوان "ينابيع الإسلام"، وقد ظهر من هذا الكتاب نسخة إنجليزية مختصرة بعنوان "مصادر الإسلام" على يد "وليم موير"[١].

وقد دارت المصادر المقترحة للإسلام من وجهة نظر "تسدال" حول ستة مصادر أساسية:

١- تأثيرات عرب الجاهلية، وبصفة خاصة أشعار امرئ القيس[٢].

٢- تأثيرات الحنفاء، وبصفة خاصة زيد بن عمرو[٣].

٣- تأثيرات الصابئة، وهو يدعي أن الإسلام أخذ من الصابئة الصوم والصلوات الخمس، وغيرها من الفرائض، اعتمادا على وجود أوجه شبه بين هذه الشعائر في الإسلام وعند الصابئة، دون أن يحدد كيفية انتقال عقائد وشعائر الصابئة إلى الإسلام[٤].

٤- تأثيرات الزرادشتية والهندوسية القديمة، وهو يذكر بعض الأمثلة على هذه التأثيرات، ومنها قصة المعراج[٥].

٥- المسيحية، وبصفة خاصة الفرق المسيحية المنحرفة، وهو يذكر بعض الأمثلة على هذه التأثيرات التي أخذها محمد (ﷺ) من أصحاب العقائد المسيحية المنحرفة، من وجهة نظر "تسدال"، ومنها قصة أصحاب الكهف،

---

١ Tisdall (W. St. Clair) , The Original Sourses of The Quran , society for promoting Christian knowledge , London , 1905 , p. 8.

٢ Tisdall (W. St. Clair) , The Sourses of Islam , translated and abridged by William Muir , The message for Muslims Trust , Edinburgh , 1900 , p. 4 – 10.

٣ Tisdall (W. St. Clair) , The Sourses of Islam , p. 92 – 96.

٤ Ibid. , p. 11 – 12.

٥ Ibid. , p. 74 – 91.

وقصة مريم، وطفولة السيد المسيح وتكلمه في المهد، وتبشيره بالبارقليط، وميزان الأعمال يوم القيامة. وهو يرى أن مارية القبطية كانت المصدر الذي وصلت منه بعض هذه المعارف إلى محمد (ﷺ)[١].

٦- اليهودية، وهو يذكر بعض الأمثلة على هذه التأثيرات، ومنها قصة قابيل وهابيل، وقصة إنقاذ إبراهيم (عليه السلام) من نار النمروذ، وقصة ملكة سبأ مع سليمان (عليه السلام)، وقصة هاروت وماروت، وغيرها[٢].

ثم خرج "تسدال" على القراء بكتابه الموسع في هذا المجال المسمى: "المصادر الأصلية للقرآن"، وقد وجد كتاب "تسدال" هذا رواجا كبيرا، رغم أنه ليس بحثا علميا بالمعنى الصحيح، وقد وصفه الناقد "فرانسوا دى بلوا" (Francois de Blois) بأنه "مُزَع رديئة من الدعايات التنصيرية"[٣].

وتكاد الدراسات التي يذهب أصحابها إلى القول باقتباس القرآن من المصادر الأخرى تتوقف عند تلك المصادر التي حددها كل من "جايجر" و"تسدال"، مع إضافة بعض التعديلات؛ للإيحاء بطرافة البحث وجدته[٤].

ويكاد يكون كتاب "جايجر" هو العمدة بين المستشرقين في مجال علاقة الإسلام باليهودية على الرغم من الانتقادات الحادة التي وجهت إليه.

لقد لقي كتاب "جايجر" هذا معارضة من عدد من النقاد؛ فقد طعن المستشرق "فليشر" (H. Fleischer) في موضوعية مؤلفه، معتبرا أن عقيدة المؤلف كانت حاسمة في صياغة هذا الكتاب. وقال المستشرق "سلفستر دي ساسي" (Silvestre de Sacy) إن المؤلف قد بالغ في ادعاءاته؛ إذ إن

---

١ Tisdall (W. St. Clair) , The Sourses of Islam , p. 46 – 73.

٢ Ibid. , p. 12 – 45.

٣ عامري ، ص ٣٨.

٤ المرجع السابق ، ص ٣٩.

الكثير من الأفكار المشتركة بين الإسلام واليهودية التي أوردها "جايجر" تتبناها جُل الأديان في العالم[١].

يقول "عبد الرحمن بدوي"[٢]: "وقد أقر بعض من المستشرقين بأن كتاب "جايجر" هذا حافل بالأخطاء، وبالأراء المتحيزة غير القائمة على أسانيد وثيقة، وفيه نزعة مغالية إلى تلمس أشباه ونظائر بين نصوص القرآن والتلمود على أسس واهية وعبارات شكلية، وبالجملة فلم يعد لكتاب "جايجر" هذا أية قيمة علمية اليوم".

ورغم أهمية كتابي "جايجر" و"تسدال" بين المستشرقين بشأن قضية "روافد الإسلام" المفترضة، إلا أنه من غير الممكن تجاوز ما كتبه "جولدتسيهر" في هذا الشأن، خاصة وأن كتابات "جولدتسيهر" لها تقدير كبير في أوساط المستشرقين عامة والمستشرقين اليهود على وجه الخصوص.

يزعم "جولدتسيهر"[٣] أن محمدا (ﷺ) مؤسس الإسلام لم يأت بجديد من الأفكار.

وفي وصف "جولدتسيهر"[٤] للإسلام يقول: "إن دعوة النبي العربي [ﷺ] ليست إلا مزيجا منتخبا من مفاهيم دينية، توصل إليها من خلال اتصاله بأسس الدين والعقيدة لدى اليهود والمسيحيين وغيرهم، وقد تأثر بهذه المفاهيم تأثرا عميقا، حتى اعتقد بأن هذه الأفكار جديرة بأن توقظ مهابة الله في قلوب قومه ... تلك الفورة التي حركت أعماق قلبه، تلقاها بنية خالصة من خلال قوة الإيحاء الداخلية التي عززتها التأثيرات الخارجية، فصارت بالنسبة له وحيا إلهيا. وبنية خالصة اعتقد أنه صار أداة لهذا الوحي".

---

١ عامري ، ص ٣٧.

٢ موسوعة المستشرقين ، ص ٢٢٣.

٣ ﻋﻤﺪ 10 ؛ p 5 ؛ ص ١١.

٤ ﻋﻤﺪ 11 ؛ p 5 ؛ ص ١٢.

ويرى "جولدتسيهر"[١] أيضا أن الرهبان المسيحيين وأحبار اليهود كانوا معلمين لمحمد (ﷺ).

وينطلق هذا المستشرق في دعواه من المسلمة الاستشراقية التي يتبناها، والتي تقوم في أساسها على إنكار الوحي المحمدي، وإحلال فكرة الوحي الداخلي محل ظاهرة الوحي الإلهي، مع محاولة البحث عن تفسيرات مقنعة للتنوع المعلوماتي الذي تظهر أصداؤه في القرآن الكريم، وذلك بالإشارة إلى روافد ثقافية متنوعة استمد منها محمد (ﷺ) معارفه غير اليهودية والمسيحية.

ولذا يرى "جولدتسيهر"[٢] أن عناصر من الغنوصية الشرقية قد تسربت إلى القرآن – في زعمه – فيقول: "وعلى غرار العناصر المسيحية في القرآن، والتي وصلت إلى محمد [ﷺ]، في الغالب، عن طريق المرويات غير القانونية (الأبوكريفية) والمذاهب المارقة التي كانت منتشرة في المسيحية الشرقية، فكذلك نجد في القرآن أيضا بعض العناصر من الغنوصية الشرقية".

ويرى "جولدتسيهر"[٣] أن الزرادشتية قد تركت أيضا أثرا على محمد (ﷺ)، فيقول: "وكذلك فإن تعاليم الفرس (الزرادشتية) التي اعتنقها المجوس، كانت موجودة أيضا في نطاق رؤية محمد [ﷺ]، بجانب التعاليم اليهودية والمسيحية، وقد أبرزها جنبا إلى جنب مع تعاليم هؤلاء، في مواجهة الوثنية، كذلك فهى لم تمر دون أن تترك أثرا شعوريا على النبي العربي، ومن التعاليم الزرادشتية تلقى محمد [ﷺ] تعليما مهما، وهو إنكار تميز يوم السبت بوصفه يوما للراحة، وبدلا منه فقد حدد يوم الجمعة كيوم لاجتماع العامة، لكن مع تسليمه بمسألة خلق العالم في ستة أيام، رفض بشكل قطعي فكرة أن الله [ﷻ] استراح في اليوم السابع".

---

[١] عمّ 16 ؛ p 10 ؛ ص ٢٠.

[٢] عمّ 18 ؛ p 14 ؛ ص ٢٥.

[٣] عمّ 19 ؛ p 15 ؛ ص ٢٦.

وقد أثرت آراء "جولدتسيهر" بشكل ملحوظ في آراء معظم معاصريه ولاحقيه من المستشرقين اليهود.

وفي ظل القحط المعرفي الذي ساد الجزيرة العربية زمن البعثة المحمدية، يصبح من غير المنطقي أن تُنسب لمحمد (ﷺ) مثل هذه المعارف العميقة من المصادر المختلفة لليهودية والمسيحية وغيرها من العقائد والشعائر الدينية لشعوب الشرق الأدنى القديم، ولذا ظهر تيار جديد، خلال القرن العشرين، ينسب القرآن إلى الأجيال اللاحقة للرسول (ﷺ)، ويعد "جون وانسبرو" (John Wansbrough)[١] من أبرز المنافحين عن هذا المذهب، وهو يرى أن القرآن تم تأليفه في القرن الثاني الهجري، وأنه نتاج الجدليات الدينية بين الإسلام واليهودية[٢].

هذه الدعوى التي وجدت لها أنصارا في القرن العشرين ليست بجديدة؛ فنحن نجد لها أصلا في كتابات الجدليين المسيحيين في العصر الوسيط.

في عام ١٢٧٣م كتب "وليم" الطرابلسي كتابا عن حياة محمد (ﷺ)، وفي محاولة منه للقدح في أصالة القرآن ومصدره الإلهي، ادعى أنه بعد موت محمد (ﷺ) أراد أنصاره أن يعالجوا العقيدة والشريعة معالجة شاملة قائمة على تعاليمه، فلما تبينوا أن الرجل الذي كُلِّف بالقيام بهذا العمل لم يرزق الكفاية اللازمة لأداء ذلك على الوجه الأكمل، طلبوا إلى اليهود والمسيحيين الذين أسلموا أن يساعدوه، وعند ذلك رأى هؤلاء أنه من الأفضل أن ينتقوا فقرات مناسبة من العهد القديم والجديد، وأن يمزجوها بالكتاب كيفما اتفق، وبذا أصبح الكتاب على عظيم من الرونق والجمال المنقول من الكتب المنزلة

---

[١] أعلن "جون وانسبرو" عن تبنيه لهذا المذهب عام ١٩٧٧م، وذلك في كتابه "دراسات قرآنية" (Quranic Studies).

[٢] عامري ، ص ٣٩ – ٤٠.

المسيحية واليهودية، أما الجانب الإسلامي الأصيل الموجود في القرآن فليس إلا تشويها وتحريفا لهذه الكتب المقدسة[١].

* * *

على أية حال، فإن بعض الكتابات الاستشراقية تفقد كثيرا من قيمتها العلمية عند اعتمادها على نوعية مثل هذه الكتابات من جدليات العصر الوسيط، فبعض الكتابات الاستشراقية التي يفترض وصفها بأنها كتابات أكاديمية ما زالت تنطلق من خلفية دينية بحتة، وأهدافها لا تختلف كثيرا عن أهداف الكتابات الجدلية خلال العصر الوسيط وبداية عصر النهضة.

يقول "جون بلير" (John C. Blair)[٢] في مقدمة كتابه "مصادر الإسلام": "يأمل المؤلف أن يكون كتابه مفيدا للمبشرين في عملهم بين المحمديين، وأن يكون مفيدا لجميع باحثي الإسلام".

يتضح أن الهدف من تأليف كتابه ليس أكاديميا بحتا، وإنما هو هدف تنصيري في المقام الأول، ومثل هذه الأهداف الدينية كثير في الاستشراق العبري.

* * *

---

١ الفيومي ، ص ٢٦٨.

٢ The Sourses of Islam , The Christian Literature Society for India , Allah Abad , 1925 , p. IX.